الفصل الثاني
الإنسان والزمان والمكان
في التعبير الشعبي

obeikandl.com

obeikandl.com

من العبث أن نبحث في معجم الإنسان البدائي والشعبي عن المصطلحات الفلسفية الخاصة بعلاقة الإنسان بالزمن مثل الوجود والعدم، والشيء الحقيقي والوهمي، والثبات والصيرورة إلى غير ذلك. على أننا إذا كنا نفتقد هذه المصطلحات الفلسفية، فإننا نجد البديل عنها وهو الشيء نفسه أو الرمز المجسد في الأساطير والطقوس.

فمنذ أن وجد الإنسان نفسه على سطح الأرض، ملك العالم السماوي عليه حسه وفكره نتيجة شعوره العميق بارتباط حياته المادية بهذا العالم. فلما أطلق العنان لخياله في تصور هذا العالم، صوره صورة مطابقة لعالمه الحسي بما فيه من أنهار وجبال وخضرة. ولابد أن تتربع على عرش هذا العالم القوة المحركة لهذا الكون والمتحكمة في مصيره، وهي الآلهة. ولكن كيف كانت علاقة الإنسان بالعالم السماوي وآلهته؟ هل كانت تتحكم في مصيره بحيث أنها إذا قضت عليه بالشر أو المرض والعجز، ارتضى هذا الحكم واستسلم له، أم أنه كان يتدخل في هذا الحكم بصورة أو بأخرى بحيث يغيره من مجرى الشر إلى مجرى آخر يقنعه بحقيقة وجوده، وبقيمة الحياة التي يحياها؟

أول ما يقال بصدد الإجابة عن هذه التساؤلات هو أن حقيقة العالم السماوي كانت تأسر الإنسان البدائي، ومثله الإنسان الشعبي. إلى درجة أنه يحن دائما إلى أن يعيش فيما يشبه هذه الحقيقة أو يقلدها. وإذا كانت حقيقة العالم السماوي مرتبطة كل الارتباط بقدسيته، فإنه يحاول قدر الإمكان أن يخلع على المكان

الذي يعيش فيه طابع التقديس، لأن هذه القدسية هي التي تشعره بمغزى وجوده وحقيقته. فهو فضلا عن أنه يشعر بعلاقة روحية بينه وبين الطبيعة التي يعيش وسطها لأنها تثير في نفسه قدسية العالم السماوي، فإنه يحرص على أن يشيد وسط المكان الذي يسكنه ما يجسد هذه القدسية، وليكن ضريحا لولي، أو كنيسة أو جامعا. وبهذا تكتمل قدسية المكان ويصبح صورة مصغرة للعالم السماوي المقدس. ولعل هذا يفسر لنا بناء الإنسان القديم للأماكن المقدسة مثل الكعبة والقدس وبابل، فهي تمثل مع غيرها من الأماكن المقدسة صورة مكررة للنظام السماوي المقدس.. ومن ثم كانت بعض هذه الأماكن، ولا يزال بعضها الآخر، يمثل وجودا حقيقيا لا تتميز به الأماكن الدنيوية الأخرى. ولعل هذا يفسر لنا كذلك حرص الإنسان الشعبي على ألا يسكن مكاناً جديدا، أو يعمر مكانا غير مأهول، إلا إذا أجرى بعض الطقوس، ولتكن اشتعال البخور وقراءة التعاويذ أو الآيات المقدسة، ولتكن تقديم ضحية عند عتبة المسكن الجديد، ولتكن دفن تميمة أو حجاب تحت أساس البيت الجديد. ومن البديهي أن الإنسان الشعبي يفعل هذا لكي يكون المكان قابلا للسكنى، أما قبل ذلك فإنه يكون منتمياً إلى عالم الفوضى حيث تجد الأشباح والعفاريت مأوى لها. أي أن الإنسان الشعبي يستطيع أن يحول الفوضى إلى نظام عن طريق إجراء الطقوس، وبهذا يصبح المكان مقدسا، ومن ثم تنشأ العلاقة الروحية بينه وبين المكان.

وليست رحلة البطل من الأساطير والحكايات الخرافية للوصول إلى شجرة الحياة أو التفاحة الذهبية أو الأميرة المسحورة

أو نبع الخلود، سوى تعبير رمزي فني عن فكرة الوصول إلى المكان المقدس. والطريق إلى هذا المكان شاق ومحفوف بالمخاطر، ذلك أن الوحش المهول يقف هناك متربصا بالبطل. وإذا كان هذا الوحش رمزا للفوضى، فلابد للبطل من أن يقتله، كي تستعيد الحياة نظامها وقدسيتها.

وكما يخلع الإنسان الشعبي طابع القدسية على المكان، فإنه كذلك يخلع طابع القدسية على الزمان. والزمان المقدس يعني الزمن الأسطوري الذي لا ينتهي. أي أن الإنسان البدائي ومثله الشعبي يصارع التاريخ، بمعنى أنه أحداث متعاقبة لا يمكن تفاديها أو تفادي نتائجها، بل إنه يحن دائما إلى الزمن الأسطوري، الزمن الأكبر حيث بدء كل شيء. وهنا يختلف الإنسان الشعبي أساسا عن الإنسان العصري (modern). فالثاني يحمل عبء الزمن وثقله، وهو يفكر دائما في لا مغزى ولا معنى الحياة. ذلك لأن الحياة تصل بكل شيء إلى قمة ازدهاره وحيويته ثم تؤول به بعد ذلك إلى الفناء. أما الإنسان الشعبي الذي يسعى دائما إلى الإحساس بوجوده الحقيقي، فإنه لا يريد أن يفقد صلته بالوجود، ولا يريد أن يقع فريسة الإحساس باللامعنى. وهو يصل إلى قمة هذا الإحساس عندما يجد نفسه يعيد ما فعل من قبل، أي يمارس الطقوس والاحتفالات التي فعلها أجداده. ففي هذه الاحتفالات التي يمارس الجميع فيها طقوسا واحدة، يشعر الإنسان الشعبي حقا أنه نغمة في لحن جماعي، بل في لحن الكون، هذا الكون الذي يتجدد دائما بتجدد الليل والنهار، وتجدد الفصول، وتجدد ظهور القمر.

الإنسان الشعبي[1] إذن يسعى إلى تجديد الحياة، أي محو الزمن الحسي وهذا ما نعنيه بحنينه إلى الزمن الأسطوري، أي الزمن المتجدد كما عبر عنه في أساطيره وما زال يعبر عنه في احتفالاته وممارساته. ولا يعني هذا أن الإنسان الشعبي لا يشعر بنهاية الأشياء أو نهاية فترة ما، حقا إنه يشعر بهذا، ولكنه سرعان ما يشعر باستمرار الحياة، ويحن إلى الخلق الجديد كما صوره في أساطيره، فيقلده أو يعيد ذكراه.

وانطلاقا من هذه الفلسفة نستطيع أن نصل إلى أبعاد طقوسه واحتفالاته الدورية، وأن نكشف عن كنه كثير من ممارساته التي قد تبدو غامضة عندما يعجز الباحث عن أن يجد لها تفسيرا مقنعا.

ويمكننا أن نقسم هذه الاحتفالات إلى نوعين: نوع يهدف إلى تطهير حياته من الأشباح والأمراض والذنوب، والنوع الآخر يهدف إلى تجديد دورة الحياة الطبيعية المرتبطة بالخصب والنماء.

أما **النوع الأول** فتتمثل طقوسه في مراسيم التطهر، وفي الصيام الدوري، وفي طرد الأشباح والعفاريت من حياة الفرد والجماعة، وفي تقديم الضحية في مناسبات معينة، وغير ذلك.

وأما **النوع الثاني** فتدور حوله كثير من الأساطير والطقوس التي عرفتها شعوب العالم أجمع وما تزال تعيد ذكراها بصورة أو بأخرى.

والواقع أن كلا النوعين من الاحتفالات يهدف إلى الإحساس بجدة الحياة واستمرارها، وخلوها من عوائق الأحداث التي نعبر عنها بالتاريخ.

فقد يمارس الإنسان الشعبي الزار في أوقات دورية إثر إحساسه بوجود عائق بداخله يفسره بأنه تملك الجن له. وهذا العائق يحول بينه وبين الإحساس بالارتياح في حياته. وغالبا ما ينتابه هذا العائق في الحقيقة إثر حادث معين. ولكان لأن الإنسان الشعبي ينزع دائماً إلى محو الزمن الحسي والعيش في الزمن الأسطوري. حيث يتجدد كل شيء، فإنه لا يفكر في هذا الحادث، بل إنه لا يتذكره. وقد عبر أحد أبناء الشعب المصري عن شعوره إثر إجرائه طقس الزار، بأنه يشعر أنه يولد من جديد. فقد يمارس طقس بقصد طرد الأشباح من عالم الإنسان، ولكن الهدف البعيد منه في الحقيقة، هو البعث الجديد على نحو ما يحدث في العالم الأسطوري، عندما تبعث الحياة بعد القضاء على العناصر الشريرة.

ويرتبط بفكرة تعلق الإنسان الشعبي بالزمن الأسطوري المتجدد موضوع تقديسه للأموات. فحرص الإنسان الشعبي على زيادة الأموات وتقديم القرابين لهم بصفة دورية، وحديثه عن أن الأموات يزورونه في الأحلام ويبلغونه قولا يتعلق بموضوع يعايشه، وقد يتنبأون بما يمكن أن يحدث في المستقبل، كل هذا يعني أن الأموات قد انتفت عنهم الصفة التاريخية، وأنهم يعيشون

معه على الدوام. ولهذا يتحتم تجديد العهد بينه وبينهم في فترات دورية حتى يعيشوا معا في تصالح دائم.

وحنين الإنسان الشعبي إلى الزمن الأسطوري المتدفق جعله يهتم بالاحتفال بتجديد دورة الحياة، وذلك عن طريق احتفالاته بالخصب والنماء. وهو في هذه الاحتفالات يشخص ما رواه في أساطير عن الحياة المتجددة في العالم العلوي.

فقد احتفلت جميع شعوب العالم، وما تزال تحتفل بصورة أو بأخرى، بعودة النضرة للحياة، إما بعد صيف جاف حار أصاب المزروعات بجفافه، أو بعد شتاء قارس قتل المزروعات بصقيعه. ففي كلتا الحالتين كانت الشعوب تحيي، في قداسة بالغة، الاحتفالات الدينية، وتجري الطقوس التي تتوسل عن طريقها إلى الآلهة لكي تعيد للحياة نضرتها على الدوام.

ويعد الرقص عنصراً هاماً في إجراء الطقوس لأن الغرض منه هو إثارة الطبيعة كي تسقط أمطارها فتمتلئ الأنهار بالمياه ويرتوي الزرع وتعود للحياة نضرتها.

وقد كان المصريون القدماء يحتفلون بفيضان النيل كل عام، بأن يلقوا فيه بعروس مزدانة لكي يتزوجها النيل، فيعود إلى حيويته ونشاطه، ومعنى هذا أن النيل الذي قد يصل نشاطه إلى حد الإنهاك، لابد أن يعود إلى كامل قواه وحيويته عن طريق الزواج الجديد.

وحول هذا المغزى تدور أسطورة أدونيس. فلقد كان أدونيس شابا جميلا أغرمت به الإلهة أفروديت. وذات يوم هاجم أدونيس ثور وحشي وأصابه بجرح أفضى به إلى الموت. وحزنت أفروديت على موت حبيبها كل الحزن، وأخذت تتضرع للإله زيوس أن يعيد الحياة إلى أدونيس. فأشفق زيوس عليها ومنح أدونيس منحة العودة إلى الحياة، ولكن في فترة معينة فقط من السنة. وتشير الطقوس التي كانت تؤدى للتعبير عن موت أدونيس وعن عودة الحياة إليه، كما يشير توقيت الاحتفال وطابعه، إلى أن أدونيس لم يكن مجرد إله، بل كان تجسيداً للزمن المتجدد الذي يؤدي إلى سلامة الطبيعة وإحيائها على الدوام. فقد كان الإغريق يحتفلون بهذا العيد في الربيع. وكان يحتفل به في فلسطين في شهر يونيه عندما يصل ازدهار النبات إلى قمته. ويقع موت أدونيس في التقويم السرياني المقدوني في الثالث والعشرين من شهر سبتمبر كما يقع بعثه في اليوم الأول من شهر أكتوبر، وهو بداية العام الجديد في هذا التقويم. وكان الاحتفال بموت أدونيس يتميز بعويل النساء عليه بصفة خاصة، وذلك لخوفهن من أن يصبن بالعقم، حيث أن الجدب يشمل كل مظاهر الحياة[٢].

ويذكر عويل النساء على أدونيس بما روي من عويل البابليين والكنعانيين بسبب اختفاء الههم تموز عنهم. وقد نجم عن ذلك أن حل الخراب بالأرض، وأصاب العقم الحيوان والإنسان. عند ذاك رفع الناس أصواتهم بالبكاء والعويل متوسلين إلى الإله تموز أن يعود إليهم، وسمع الإله تموز بكاءهم، فأشفق عليهم،

وقرر أن يضع حدا لمتاعبهم بأن يعود إلى الأرض فترة قصيرة كل عام. وها هي ذي بعض عبارات هذا العويل..

بكاؤنا في كل مكان في الأرض، مرتفعاتها ومنخفضاتها لعله يصل إلى بيت الإله.

إنه عويل من أجل النبات الذي كف عن النمو.

ومن أجل الشعير الذي ذبل.

ومن أجل الناس والقطيع، فقد كفوا عن التوالد.

ومن أجل موت الشباب والأطفال.

ومن أجل النهر الذي كف عن الفيضان ومن أجل السمك الذي اختفى.

ومن أجل الغابات التي لم يعد ينمو فيها شجر التمرسك.

ومن أجل مخازن البيوت التي لم تعد تستقبل النبيذ والعسل.

ومن أجل البراري التي لم تعد تنبت فيها الحشائش.

ومن أجل القصر الذي ولت عنه بهجة الأيام الماضية.

obeikandl.com

وإذا كان النص لم يشر إلى احتفالات الشعب ببعث الإله تموز، إلا أن تكملة النص تشير إلى عودة الخصب إلى الحياة مرة أخرى، فقد ورد فيه:

لقد ترعرعت الحشائش حيث كانت قد اختفت.
وتدفقت المياه وعاد الناس يجرعونها.
واستعاد الناس بناء الحظائر بعد أن كانت قد هدمت[٣].

وقد تعود البابليون إحياء ذكرى الصراع بين تيامات، وحش البحر الذي يمثل الفوضى، والإله مردوك الذي يرمز إلى النظام، وقد تمكن مردوك من أن يقتل تيامات، ثم شرع بعد ذلك في خلق الكون والإنسان. وقد كانت الطقوس التي تحيي ذكرى هذه الحادثة الأسطورية، تجرى على النحو التالي:

١- قضاء فترة من التطهر والتكفير عن الذنوب، وتقديم الضحية وهي تمثل الفترة التي كان فيها مردوك أسيرا في الجبال عاجزا عن التخلص من سيطرة تيامات عليه. وكل هذا يرمز لمرحلة الفوضى التي سبقت خلق الكون وتنظيمه.
٢- يدور الصراع بين فريقين أحدهما يمثل مردوك والآخر تيامات، ويصيح الناس بفريق مردوك أن ينتصر، بينما يدعون على الفريق الآخر بالفناء.
٣- انتصار فريق مردوك الذي يعني الخلق الجديد للعالم والإنسان وما يعقب هذا من احتفالات[٤].

ويحتفظ اليابانيون في تراثهم بذكرى "تاما" والتاما عنصر روحي يعيش مع الإنسان ومع الأموات ومع القديسيين. فإذا أوشك

الشتاء على الانقضاء مسلما دورة الحياة إلى الربيع، تهيجت التاما وحاولت أن تترك جسم الإنسان الحي، كما تحاول تاما الأموات أن تغزو مساكن الأحياء. والغرض من هذا الاحتفال المشبع بالمغزى النفسي الفسيولوجي هو تثبيت تلك المادة الروحية في الجسم. ذلك أن النفس الإنسانية التي يطول كبتها في موسم الشتاء، تتهيج عندما تشعر بمقدم الربيع وموسم الازدهار والأخصاب. ومن ثم يجري هذا الاحتفال لوضع حد لتهيجها لكي تمارس نشاطها في نظام مع مطلع الميلاد الجديد.

كل هذه الشعائر والطقوس هي في تكوينها البنائي نوع من سحر المشاركة كما شرحه **فريزر** في كتابه "الغصن الذهبي". وهي تنبع أصلا من حاجة الإنسان الشعبي إلى تحرير نفسه من أسر الإحساس بالزمن عن طريق استحضار النموذج القديم الذي يجعله يشعر بأنه معاصر للزمن الميثولوجي لبداية الحياة. وهو يشعر بالحاجة إلى العودة إلى تلك اللحظة أكبر وقت ممكن، لكي يجدد نفسه ويجدد حياته. وسواء كانت تلك الطقوس جمعية أو فردية، وسواء كانت دورية أو تلقائية، فإنها تحتوي في بنائها على معنى الإحياء عن طريق تكرار الفعل القديم، الذي غالباً ما يكون فعلا قد شارك في تكوين الكون لأول مرة. وكل ما يهمنا من سرد هذه الأمثلة هو تأكيد نزوع الإنسان إلى محو الزمن الحسي.

وأكثر ما يؤكد لنا هذه الفلسفة، تعلق الإنسان الشعبي منذ القدم بالقمر، بحيث صاغ حوله الأساطير التي سنشير إليها وشيكا.

فإذا كان القمر قد أسعف الإنسان بقياس الزمن بطريقة حسية، وذلك قبل إدراكه للحساب الشمسي بزن طويل، فإن القمر في الوقت نفسه رمز للعودة الأبدية. إنه النمط القديم للاستمرار الذي يحن إليه الإنسان الشعبي ويصارع الحياة من أجله. فكما أن القمر يبزغ ثم يكتمل ثم يتمزق ويختفي ثم يعود حياة مرة أخرى، فكذلك يولد كل شيء في الحياة، وينمو ثم يعود للحياة مرة أخرى.

(٢)

وفي مرحلة تالية لذلك كان ينظر إلى الملك عند شعوب الحضارات القديمة، بل وعند بعض سكان إفريقيا الأصليين في العصر الحاضر، كان ينظر إليه بوصفه ممثلاً للإله.

فقد كان الملك عند الإغريق يعد ممثلاً للإله زيوس. وقد كانت الواجبات الملقاة على كاهل هذا الملك من المشقة بمكان، بحيث لا يمكن أن يقوم بها سوى رجل خال من أي عيب جسدي أو عقلي، أي لابد أن تتوفر لهذا الملك الحيوية والشباب طالما كان يحكم شعبه. لقد كان شعبه يطلب منه أن يكون مهابا من الرجال الأقوياء، وإن يستطيع أن يحكم بالعدل بينهم وأن تنبت الأرض طول مدة حكمه الشعير والقمح وتحمل الأشجار الفواكه والثمار الطيبة. ويلد القطيع الصغار، كما يتوالد السمك في البحار، وأن يعيش الشعب في رخاء دائم. والملك يقدر على تحقيق كل هذا لشعبه إذا كان خالياً من أي عيب جسدي أو عقلي،، أما إذا كان مريضاً على نحو ما، ابتليت مملكته بالمرض. "ولهذا فقد حذرت النبوءة الأسبرطيين من الحكم الأعرج"[٥].

وقد روى **فريزر** ما يشبه هذا التصور عند الإغريق، عن قبيلة الشلوك التي تسكن النيل الأبيض في منظمة تمتد من الشاطئ الغربي عند مدينة كاكا في الشمال إلى بحيرة نو في الجنوب، كما تسكن الشاطئ الشرقي من النهر من فاشودة إلى التوفيقية. فملكهم الذي كمان يقيم في فاشودة، ينظر إليه بوصفه تجسيداً للبطل المؤله "نياكنج" الذي كان أول من أستوطن بقبيلته هذا المكان وفقاً لأسطورتهم. وقد كان هذا البطل يؤله بوصفه مانح المطر. وعلى الرغم من تقديس القبيلة للملك على هذا النحو فإنه لم يكن يسمح له بأن يصير هرما ضعيفا، وألا سرت عدوى الضعف إلى قبيلته، فيمرض القطيع وتذبل المحاصيل ويموت الرجال بأعداد كبيرة، وإحدى علامات ضعف هذا الملك عجزه عن تحقيق رغبات زوجاته اللاتي يمتلك منهن العدد الكبير. فإذا حدث هذا رفعت الزوجات شكواهن إلى رؤسائهن الذي يشرعون على الفور في تعريض الملك العجوز للقضاء، وإحلال ملك شاب قوي مكانه(٦).

وكل هذا يعني أن الملك لم يكن مجرد رجل يحكم، بل كان تجسيدا لقوة إلهية مرتبطة بخصب الأرض ورخاء الناس، وقدرة الإنسان والحيوان على الإخصاب. إنه نصف إله ونصف إنسان، ومركزه يقع بين الناس والأرض من ناحية، والقوة الخفية التي تتحكم في مصائر الناس من ناحية أخرى. وسواء كان هذا الملك هو أدونيس أو تموز، أو كان ملكا حقا، فإن نسيج قصته واحد، وطقوس الاحتفال بموته وبعثه واحدة. ويتألف نسيج القصة أساسا من مجموعة من المتناقضات هي الموت والبعث، والجدب والخصب، والحزن والبهجة.

وقد ظل تأثير هذه الأساطير ممتدا حتى العصور الوسطى. فقد شاع في القصص الرومانسي في هذه الفترة في أوروبا نمط قصصي هو قصة "الملك الصياد والكأس" The Fisher King and the Grail وقد درست **جيسي وستون** "هذه القصة في كتابها القيم "من عصر الطقوس إلى العصر الرومانسي". بقصد الكشف عن أصول هذه القصة، وتفاصيل الطقوس والأساطير القديمة الخاصة بتجدد الحياة، يؤكد أن قصة الملك الصياد والكأس ليست سوى امتداد للأساطير القديمة. ولا يرجع ظهور هذه القصة في الأدب الرومانسي في العصور الوسطى إلى مجرد تقليد هذا الأدب القديم واستيحائه لبعض نماذجه، بل يرجع إلى امتداد الاعتقاد القديم في حد ذاته أن الحياة تتجدد كلما آل بها الزمن إلى الهرم، وأن هذا التجدد يحتاج إلى إجراء طقوس معينة لكي تعود القوة والحيوية إلى الشخوص الأسطورية التي يرتبط شبابها بشباب الأرض ومن عليها.

وتتلخص هذه القصة في أكمل رواياتها في أن الملك الصياد كان يعاني من ضعف بسبب مرض أو بسبب الهرم. ولو كان ضعف هذا الملك يعنيه وحده، لما اهتم بذلك أحد، ولكن هذا الضعف الجسدي، وربما العقلي كذلك الذي انتابه، هدد بلاده بالخراب. وكان يتطلب الأمر، لكي يستعيد الملك قواه وحيويته، أن يرحل فارس شاب إلى قلعة بعيدة يكتنفها الغموض ليحضر منها السيف والكأس. وما أن وطئت قدماه هذا المكان حتى بدت له أشياء يقف لها شعر الرأس رعبا. فقد بدا له في السكون والظلمة المخيفة على المكان، جسد ميت، كما امتدت إليه يد مُدْمية من

مكان مجهول، وإلى جانب هذا سمع أصواتا مرعبة تحذره من الاقتراب من هدفه، ولكن الفارس البطل استطاع رغم كل ذلك، مستعينا بتعاويذه السحرية، أن يصل إلى مطلبه. ثم راح بعد ذلك في سبات عميق. فلما استيقظ وجد أن القلعة قد اختفت، وأبصر نفسه يسير وسط ربوع خصبة مليئة بالورود. وعندما عاد إلى بلده، حيث ترك الناس يبكون ويولولون بسبب الخراب الذي يتهددهم، وجد المأتم قد انقلب إلى فرح وسعادة، ووجد الناس ينتظرون قدومه لكي يستقبلوه استقبال البطل الذي استطاع أن يعيد للملك شبابه ولحياتهم الخصب بعد أن تمكن من الحصول على الكأس والسيف.

هذه القصة التي وردت في ملحمة الملك آرثر وفي قصة برسيفال، وربما في غير ذلك من القصص الذي شاع في العصور الوسطى، تشبه ولا شك الأساطير الطقوسية التي سبق أن أوردناها.

وإذا كان الباحثون قد انتهوا إلى أن الكأس يرمز للأنثى، وأن السيف يرمز للذكر، فإن دواء الملك الذي يسعى الفارس في الحصول عليه إذن، يتمثل فيما يمكن أن يعيد للملك قواه الجنسية لكي يكون قادراً على الإخصاب فتخصب الأرض، نتيجة لذلك، بتأثير سحر المشاركة.

ولا ننسى أن نذكر في هذا المجال أن لقب "الملك الصياد" هو في حد ذاته الرمز الذي تدور حوله الأسطورة بأكملها. ذلك أن السمكة تعد رمزا للإخصاب منذ العصور القديمة حتى اليوم

ومعنى هذا أن الملك الذي يرتبط شباب الأرض بشبابه، ينبغي أن يكون ممتلكا لمصدر الإخصاب وما يتولد منه، وهو الماء.

على أن أساطير الخصب القديمة لم يقف تأثيرها عند هذا الحد، بل ما يزال تأثيرها وتأثير المعتقد نفسه جليا في الحياة الشعبية المعاصرة وفي التفكير الشعبي بصورة أو بأخرى. فاحتفالات الربيع التي تجرى في جميع أنحاء العالم، ومن بينها احتفالنا الشعبي بشم النسيم، ليس سوى تكرير للطقوس القديمة، وإن غاب المضمون الديني المقدس عن هذه الاحتفالات. وقد اعتاد الأطفال في بعض قرى مصر أن يصنعوا عروسة من الخشب أو القماش ويلبسوها، ويطوفوا بها في الشوارع ليلة الاحتفال بشم النسيم، ثم كانوا يحرقون العروس في نهاية الاحتفال ويلقون بها في النيل وهم يغنون:

عروسة شم النسيم
كل سنة وانتم طيبين
عروسة شم النسيم
سنة بيضة على الحاضرين
قوم اصحى يا وخم
قوم أترك البلد

فالعروسة هنا رمز للسنة المنصرمة التي أصابها الهرم بحلول فصل الشتاء، ولابد لهذه السنة أن تتجدد بحلول فصل الربيع، ولهذا فإن العروسة يلقى بها في الماء لأنه أصل كل شيء حي كما سبق أن ذكرنا، ومن هنا نفهم الصلة بين الأغنية وحرق

العروسة، إذ أن الأغنية تتمنى للناس، بعد القضاء على الشيء البالي، عاما كله خير وبركة، مليئا بالحيوية والنشاط، وليس احتفال الشعب بالزواج وفقاً لطقوس معينة، ودعاؤهم للعروس ليلة زفافها بقولهم "ربنا يجعلك شجرة تطرح وتملا المطرح" ، سوى تعبير عن الاحتفال باستمرار الحياة المتمثلة في جيل مخصب يعقب جيلا أصابه الجدب والهرم، بل إن الربط بين الشجرة المثمرة والعروس المخصبة لأكبر دليل على حنين الشعب لأن يرى الإخصاب المتجدد في كل مظاهر الحياة.

ويحتفل الشعب بميلاد الطفل بطقوس معينة حيث أن هذا الميلاد رمز لاستمرار الحياة. ولهذا فإن الشعب يحيط هذا الميلاد الجديد بكل ما يضمن له البقاء والاستمرار، فهو يحميه من الأرواح الشريرة عن طريق تعاويذه وطقوس سحره، وهو يجرى له احتفالا خاصاً في اليوم السابع من ميلاده عندما تفارقه الملائكة وفقاً لاعتقاده، بعد أن رعته من الشر الذي يكون معرضا له أكثر ما يكون في السبعة أيام الأولى من ميلاده. وفي هذا الاحتفال يدق الهاون حتى تهرب الأرواح الشريرة التي تفزع من صليل النحاس، كما أنه يضع بجانبه الماء من القلة أو الإبريق، وكذلك يضع سبع حبات في الماء كي تنبت. وهذا تعبير رمزي مُجَسّد مغزاه أن تكون حياة الطفل جارية جريان الماء، ونضرة نضرة الزرع.

وحنين الشعب إلى الزمن الأسطوري يدفعه لأن ينتزع الشخصيات الجذابة التي تروقه لسبب أو لآخر من إطارها التاريخي ويضعها في قالب أسطوري. ومن هنا ظهرت أساطير

هرقل وجلجامش ومارجرجس، والسيد البدوي، وعنترة وغيرهم. وكلها ينزع إلى تشكيل الحدث الواقعي في شكل أسطوري، بحيث يصبح هذا الحدث الأسطوري هو الأصل، والحدث الواقعي صورة ممسوخة له، ونلاحظ أن كل هذه الشخوص صارعت القوى المهولة سواء كانت تنيناً أو غيره، إن هذا الفعل وحده يكفي أن يزج بها في الزمن الأسطوري ويبعدها عن الزمن التاريخي. وكلما ارتبطت الشخصيات بطقوس معينة تمارس دوريا على سبيل الاحتفال بذكرها، عاشت هذه الشخصيات على الدوام في ضمير الشعب. ولهذا كانت شخصية القديس مارجرجس والسيد البدوي على سبيل المثال ما تزال وسوف تظل ماثلة في نفوس الشعب المصري، في حين أن شخصيات السير الشعبية مثل الظاهر بيبرس وعنترة قل حجمها بمجرد اختفاء الأنماط القصصية التي نسجت حولها، وذلك لعدم ارتباط تلك الشخصيات بطقوس معينة.

وإذا قام الإنسان الشعبي بعمل تتعلق حياته بنتيجته، سرعان ما يشعر بسيطرة العالم المقدس عليه، أو لنقل أنه سرعان ما يتجاوز العالم المعلوم إلى العالم الغيبي، حيث يعيش فترة في الزمن الأسطوري المقدس، فقد حكى لنا صياد من منطقة رشيد الساحلية في مصر عن تجربته الشخصية عندما يخرج للصيد من رشيد متوغلا في أعماق البحار فقال: عندما نقف على الشاطئ، وقد استعد المركب للإقلاع نوجه بصرنا إلى ضريح الشيخ أبي مندور الذي يقع قبالتنا على الساحل الآخر. فإذا بشعلة خافتة من الضوء تخرج من هذا الضريح وتتجه إلينا.، عند ذاك نتوكل على الله ونبحر والضوء ملازم لنا كأنه النور الهادي لنا في الطريق.

ويظل هذا الضوء يصحبنا حتى نجتاز المنطقة الخطيرة. وعند ذاك ينحسر الضوء ويرتد إلى الضريح، وبعد ذلك نشتم رائحة بخور عطرة تنتشر في الجو.

وقد يبدو هذا السلوك ساذجا لمن هو بعيد عن روح الحياة الشعبية، ولكننا عندما نتعمق في طبيعة الإنسان الشعبي، ندرك أن هذا السلوك ينتمي إلى فلسفته العامة في إكساب كل ما هو دنيوي طابعا دينيا مقدسا، لأن الحقيقة الكبرى لا تتمثل إلا في هذا الشيء المقدس. ومن ثم فقد نقل الحدث الحسي إلى الزمن اللاحسي الأكبر حيث تقضي القوة الخيرة على القوة الشريرة، فتعود للحياة صيرورتها الدائمة ونظامها.

(٣)

ويتنوع تجسيد الشعوب لفكرة الزمن اللامتناهي بحيث تأخذ أشكالا عدة تكون منبعا مادة لتراث شعبي خصب. وقد سبق أن رأينا كيف انتشرت في التراث حتى العصور الوسطى فكرة الملك المقدس الذي يتحتم عليه أن يظل شابا مليئا بالحيوية وإلا قضى عليه بالموت. أما في مجتمعنا العربي، فقد تجسدت فكرة الزمن اللامتناهي في شخصية الخضر وفيما صيغ حولها من روايات.

فمن هو الخضر؟ ولماذا سمي بهذا الاسم؟ يفاجئنا هذا الاسم في شرح المفسرين للآيات القرآنية التي تحكي عن مقابلة موسى عليه السلام للشخصية المجهولة عند مجمع البحرين على نحو ما ورد في سورة الكهف في قوله تعالى "وإذا قال موسى لفتاه

لا أبرح حتى أبلغَ مَجمعَ البحرين أو أمضي حقبا. فلما بلغا مجمع بينهما، نسيا حوتهما فاتخذ سبيله في البحر سربا. فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا. قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فأني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجبا. قال ذلك ما كنا نبغِ، فارتدا على آثارهما قصصا. فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما".

وقد أورد الطبري على عادته روايات عدة تشرح سبب نزول هذه الآيات وتفسيرها في الوقت نفسه. ومن بين هذه الروايات أورد رواية هذا نصها: "أن موسى هو نبي بني إسرائيل سأل ربه فقال: أي رب إن كان في عبادك أحد هو أعلم مني فادللني عليه. فقال له نعم في عبادي من هو أعلم منك. ثم نعت له مكانه وأذن له في لقيه. فخرج موسى ومعه فتاه ومعه حوت مليح وقد قيل له: إذا حيي هذا الحوت في مكان فصاحبك هنا وقد أدركت حاجتك. فخرج موسى ومعه فتاه، ومعهما ذلك الحوت يحملانه. فسار حتى جهده السير وانتهى إلى الصخرة وإلى ذلك الماء، ماء الحياة، من شرب منه خلد ولا يقاربه شيء ميت إلا حيي. فلما نزلا ومس الحوت الماء حيي فاتخذ سبيله في البحر سربا. فانطلقا. فلما جاوزا منقلبه قال موسى: آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا. قال الفتى وذكر: "أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره، واتخذ سبيلة في البحر عجبا". قال ابن عباس: فظهر موسى على الصخرة حتى انتهينا إليها. فإذا برجل متلفف في كساء له: فسلم موسى فرد عليه

السلام ثم قال له، ما جاء بك إن كان لك في قومك شغل؟ قال له موسى: جئتك لتعلمني مما علمت رشدا. قال: إنك لن تستطيع معي صبرا، وكان رجلا يعلم علم الغيب قد علم ذلك"[٧].

وفي رواية أخرى أن رجلا من بني إسرائيل سأل موسى: "هل على الأرض أحد أعلم منك يا رسول الله؟ قال: لا فبعث الله جبرئيل إلى موسى عليهما السلام فقال: إن الله يقول: وما يدريك أين أضع علمي. بل إن على شط البحر رجلا أعلم منك. فقال ابن عباس: هو الخضر. فسأل موسى ربه أن يريه إياه. فأوحى الله إليه أن ائت البحر فإنك تجد على شط البحر حوتا. فخذه فادفعه إلى فتاك ثم الزم شط البحر. فإذا نسيت الحوت وهلك منك، فثم تجد العبد الصالح الذي تطلب"[٨].

وروى أن ابن عباس تمارى هو والحر بن قيس بن حصن الفزاري في صاحب موسى: فقال ابن عباس: "هو خضر، فمر بهما أبي بن كعب فدعاه ابن عباس فقال: أني تماريت أنا وصاحبي هذا في صاحب موسى الذي سأل السبيل إلى لقيه. فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر شأنه؟ قال: أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: بينما موسى في ملأ من بني إسرائيل إذ جاءه رجل فقال: تعلم مكان أحد أعلم منك؟ قال موسى: لا فأوحى الله إلى موسى: بل عبدنا خضر، فسأله موسى السبيل إلى لقيه. فجعل الله له الحوت آية وقيل له: إذا فقدت الحوت إرجع فإنك ستلقاه. فكان موسى يتبع أثر الحوت في البحر. فقال فتى موسى لموسى: أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فأني نسيت الحوت.

قال موسى: ذلك ما كنا نبغ، فارتدا على آثارهما قصصا، فوجدا عبدنا خضرا، وكان من شأنهما ما قص الله في كتابه"[٩].

من كل ذلك نستخلص ما يلي:

أولاً: إن الآيات القرآنية لم تذكر اسم ذلك العبد الذي لقيه موسى، بل اقتصرت على الإشارة إلى صفاته في قوله تعالى: "فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما". وعندما شرع المفسرون في شرح الآية، وألحوا على تحديد اسم هذا العبد حتى تتحدد شخصيته ويصبح تجسيدا لطبيعة مميزة بأفعالها وروحانياتها، وجد أن هذه الطبيعة لا تنتمي إلى الطبيعة البشرية كلية، بل إنها تخرج عن دائرة الأنبياء المعروفين لتدخل في مجال أشد قربا إلى الطبيعة الألهية، وأكثر ابتعادا عن الطبيعة الإنسانية. وعندما سميت هذه الشخصية باسم أطلق عليها اسم الخضر وليس هناك شك في أن الاسم يعني الخضرة أي النضرة الدائمة.

ثانياً: أن أكثر ما يميز هذه الشخصية هو وصولها إلى العلم الغيبي. وعلى الرغم من أن موسى نبي إلا أن الآيات شاءت أن تؤكد أن نبوته لم ترفعه كلية عن مستوى قدرات البشر العاديين. ولهذا فإن أول ما يفاجئنا في الآيات، إدراك هذا العبد بأنه أرفع قدرا من موسى، ولم ينس لذلك أن يذكر موسى بهذا الأمر منذ بداية مقابلته له وطوال رحلته معه: قال له موسى: "هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشدا. قال إنك لن تستطيع معي صبرا. وكيف تصبر على ما لتحط به خبرا. قال ستجدني إن شاء الله

صابرا ولا أعصي لك أمرا. قال فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا". فلما ألح موسى على أن يعرف منه ما عجز علمه عن إدراك مغزاه، ذكره العبد أكثر من مرة بوعده له بأنه لن يتدخل في شئونه فكان موسى يعتذر له المرة تلو الأخرى. حتى إذا نفد صبر موسى والعبد معا، شرع العبد في إزاحة الستر الذي يقف حائلا بين موسى وبين إدراك الحقيقة الغيبية، ولكنه فارقه واختفى إثر ذلك. "قال هذا فراق بيني وبينك، سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا". وكان العبد أو الخضر، في أثناء تفسيره لمغزى ما أقدم عليه من فعل يبدو في ظاهره شرا وإن كان في باطنه فعلا طيباً، ينسب الإرادة لنفسه: "فأردت أن أعيبها" "فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا" "فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما". حتى إذا جاء إلى نهاية تفسيره "ذكر أن الإرادة الألهية هي التي أودعته سرها": "وما فعلته عن أمري". ومعنى هذا أنه بعد أن منح هذا السر الإلهي، أصبحت له قدرة التصرف وفقاً لما ينجلى له في باطن الأمر.

ثالثاً: إن العلامة التي أعطيت لموسى للتعرف على هذا العبد المجهول، تحددت أولا في العثور عليه في مكان ما، سمي بمجمع البحرين، وإثر حادث غريب هو أن السمكة المملحة التي كان يحملها فتى موسى لابد أن تحيا إثر تسربها في البحر. ولهذا عندما أعلم الفتى موسى بأن السمكة تسربت في البحر، على نحو ما ورد في الآية الكريمة: "أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فأني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان، أن أذكره، وأتخذ سبيله في البحر عجبا." فرد موسى قائلا على الفور: "ذلك ما كنا نبغ" ولعل هذا ما

دفع بعض المفسرين لأن يوضح طبيعة الماء الذي تسربت إليه السمكة، أو بالأحرى الحوت، بقوله: "فسار (أي موسى) حتى جهده السير وانتهى إلى الصخرة وإلى ذلك الماء، ماء الحياة، من شرب منه خلد ولا يقاربه شيء ميت إلا حيى. فلما نزلا ومس الحوت الماء حيى "فاتخذ طريقه في البحر سَرَبًا". والواقع أن حتمية وجود العبد الصالح أو الخضر عند هذا الماء بعينه الذي حيى فيه الحوت يدعو إلى التساؤل: هل هناك علاقة بين عودة الحياة إلى الحوت إثر لمسها لهذا الماء، وبين وجود الخضر في هذا المكان، وبمعنى آخر: هل يعد هذا العبد الصالح خالدا لكونه كان يعيش عند نبع الخلود الذي شرب منه بالضرورة؟ وهل اصطلح، لهذا السبب بعينه، على تسميته بالخضر أي الذي يتصف بالنضرة الدائمة؟ هذا على الأقل ما رسخ في نفوس الشعوب الإسلامية، وساعد على أن تعيش هذه الشخصية في ضمائر الناس بوصفها تجسيداً للزمن اللامتناهي.

ونحاول الآن أن نرى كيف استغلت هذه الشخصية في الروايات الشعبية.

لعب الخضر دورا مهما في حياة بعض الشخصيات التاريخية البارزة التي نسج حولها القصص الشعبي. ومن تلك الشخصيات شخصية ذي القرنين التي ورد ذكرها في القرآن الكريم. ووفقا للرواية الشعبية المدونة التي رواها وهب بن منبه في كتاب "التيجان في ملوك حمير" عن ذي القرنين من إن الصعب ذا القرنين – كما يسميه– رأى في مطلع حياته، وقبل أن يقوم

بمغامراته العجيبة، رأى رؤى غريبة على مدى أربع ليال على التوالي. فقد رأى في الليلة الأولى "أنه يرقى جبلا عظيما منيعا لا يسلك فيه سائر من هول ما رأى، إذ أشرف على جهنم وهي تحته تزفر وأمواجها تلتطم". ورأى في الليلة الثانية "كأنه نصب له سلم إلى السماء ورقى عليه، فلم يزل يرقى حتى بلغ إلى السماء، فسل سيفه ثم علقه مصلتا إلى الثريا، ثم أخذ بيده اليمنى الشمس وأخذ بيده اليسرى القمر، ثم سار بهما وتبعته الدراري والنجوم ثم نزل بهما إلى الأرض، فلم يزل يمشي بهما وتبعته النجوم في الأرض" وفي الليلة الثالثة رأى "كأنه جاع جوعا شديدا وظهر إلى الأرض فصارت له غذاء، فأقبل عليها يأكل جبلا جبلا وأرضا أرضا حتى أتى عليها كلها، ثم عطش فأقبل على البحار يشربها بحرا بحرا حتى أتى على السبعة أبحر. ثم أقبل على المحيط يشربه فلما أمعن فيه إذا هو بطين وحمأة سوداء لم تسغ له بما آتاه. فلما نام في الليلة الرابعة "رأى كأن الأنس والجن أتوه من الأرض كلها حتى جلسوا بين يديه، ثم أقبلت البهائم والأنعام من الأرض كلها حتى جلست بين يديه. ثم أقبلت الوحوش من الأرض كلها حتى جلست بين يديه، ثم أقبلت الطير كلها حتى أظلته، وأقبلت الهوام من جميع الأرض كلها حتى حفت به، ثم أقبلت الرياح حتى استدارت فوقه"(١٠).

وكان من الطبيعي أن يشعر ذو القرنين بقلق بسبب هذه الرؤى، ولهذا فقد سعى إلى من يفسرها له. وأشار عليه أحد حكماء قومه بقوله: "ليس على الأرض من يفسر تأويل رؤياك إلا نبي بيت المقدس من ولد أسحق إبراهيم الخليل. "فاستعد الإسكندر

لمقابلته" فلما نزل بيت المقدس سأل عن النبي الذي ذكر له ولم يطلب شيئا غيره حتى ظهر عليه. قال له الصعب: أنبي أنت؟ قال له موسى الخضر: نعم عند ذاك قص عليه ذو القرنين ما رآه في رؤياه. فأعلمه الخضر بأنه مقدم على مغامرات وفتوحات وأنه سوف يصطحبه فيها. وسار ذو القرنين يفتح البلاد البعيدة التي يسكنها أقوام غرباء والخضر بصحبته. وكان كلما عَنّ له أمر من الأمور، سأل الخضر، وكان الخضر يجيبه في غير تعنت. حتى إذا اقتربا من صخرة، حاول ذو القرنين أن يرقاها عدة مرات، ولكنها كانت في كل مرة تنتفض وترتعد وتقعقع. فلما دنا منها الخضر سكنت فرقى عليها، فلم يزل يرقى وذو القرنين ينظر إليه والخضر يطلع إلى السماء حتى غاب عنه. فناداه مناد من قبل السماء. أمض أمامك فاشرب فإنها عين الحياة، وتطهر فإنك تعيش إلى يوم النفخ في الصور، ويموت أهل السماوات وأهل الأرض، فتذوق الموت حتما مقضيا.. فلما رجع الخضر إلى ذي القرنين، قال له: ياذا القرنين إني شربت من ماء الحياة وتطهرت منه وأعطيت الحياة إلى يوم النفخ في الصور وموت أهل السماوات والأرضين ثم أموت حتما مقضيا، ومنعت أنت ذلك ولك مدة تبلغها وتموت، فأرجع فليس بعدها مزيد لأنس ولا جن"[١١].

نستخلص من هذه الرواية ما يلي:

١- أن اسم الخضر في هذه الرواية أصبح موسى الخضر، وهذا اعتراف ضمني بأنه هو العبد الصالح الذي لقيه موسى عند مجمع البحرين، وفقا لما اصطلح عليه المفسرون.

٢- حدث خلط تاريخي في الروايات الشعبية عندما تصور الرواة أن ذا القرنين الذي عرف بأنه الإسكندر الأكبر أنظر الطبري جـــ١٦ في تفسير آية "ويسئولنك عن ذي القرنين" من سورة الكهف، قد عاش قبل زمن موسى، وبهذا يكون الخضر قد ظهر له قبل أن يظهر لموسى. بل إن أول ظهوره كان لذي القرنين، ثم ظهر من بعده لموسى ولجميع النبيين كما تقول الرواية.

٣- إن المضمون الأساسي الذي شاء الراوي الشعبي أن يبرزه في قصة الإسكندر هو خلود الخضر في مقابل فناء الإنسان العادي مهما بلغت سطوته وبعد صيته. والسبب في خلود الخضر شربه من عين الحياة أو ماء الحياة، في حين حرم هذا على ذي القرنين. ولكن على الرغم من خلود الخضر، فإن خلوده ليس نهائيا، فهو سوف يذوق الموت قبل البعث مباشرة كما وضح له الصوت الذي سمعه عندما رقى الصخرة في قوله: "امض أمامك واشرب فإنها عين الحياة، وتطهر، فإنك تعيش إلى يوم النفخ في الصور ويموت أهل السماوات والأرض فتذوق الموت حتما مقضيا".

وقد نتساءل بعد ذلك: لماذا لم يمتد القصاص الشعبي بقصة الخضر مع سيدنا موسى بدلا من ربطه بين الخضر وذي القرنين مرة أخرى؟ ونحن نرد على ذلك بأنه من السمات الأساسية في القصص الشعبي استغلال الحادثة الجزئية (الموتيف) في أكثر من قصة، بل ونقلها كلية في بعض الأحيان من القصة التي ارتبطت بها أصلا إلى غيرها من القَصَصْ المؤلف. وربما كانت أهم حادثة

جزئية استرعت نظر القصاص الشعبي في قصة الخضر وموسى، هي خلود الخضر. فلما شاء أن يقابل بين الخلود الذي يحن إليه، بل ويشعر أنه جزء من تكوين هذا الكون، وبين الفناء الذي قدر للإنسان مهما بعد صيته، ربط بين الخضر والإسكندر الذي لم يضارعه إنسان فان في فتوحاته.

هذا شيء والشيء الآخر هو أن شخصية الإسكندر الأكبر، في الحقيقة، لم تستهو خيال القصاصين العرب وحدهم، بل استهوت خيال جميع القصاصين في بلاد العالم على وجه التقريب. وتكاد تتفق الروايات العربية والأجنبية جميعا حول رغبة الإسكندر الملحة في الحصول على الخلود، كما أنها تتفق جميعا في أنه حرم هذا الخلود، في حين قدر لشخصية أخرى هي الخضر في الروايات العربية وطاهي الإسكندر في الروايات الغربية. فتحكي هذه الروايات الأخيرة أن الإسكندر قام بمغامرة إلى بلاد الظلمات بهدف الوصول إلى منبع الفرات حيث يوجد نبع الخلود. وطال تجوال الإسكندر في بلاد الظلمات دون أن يهتدي إلى مطلبه. فلما تعب استقر مع طاهيه عند نبع تخيله نبعا عادياً كسائر الأنبع التي مر بها. ثم طلب من طاهيه أن يعد له طعاما. فأخذ الطاهي سمكة مملحة ونزل في النبع لكي يغسلها، ولكنه فوجئ بأن السمكة تحيا وتتسرب في البحر.

وأدرك الطاهي تواً أنه بإزاء نبع الخلود. فأسرع وتجرع جرعات من مياهه، وأخفى خبر هذا الحادث عن الإسكندر. ثم أعد له طعاما آخر. فأكلا معا ثم استأنفا سيرهما، حتى بعدا كلية عن

هذا النبع، ولم يكن هناك سبيل للرجوع إليه. وشاء الإسكندر أن يستريح مرة أخرى، ثم طلب من طاهيه أن يقص عليه حكاية لتسليته. فحكى الطاهي، مدفوعا بغرابة ما حدث، حكاية السمكة التي تسربت إلى الماء وحييت، فتميز الإسكندر غيظا لخيانة الطاهي من ناحية، ولاستحالة الوصول إلى هذا النبع مرة أخرى به التعرف عليه في تلك الظلمات الحالكة. فقام بدافع الغضب واليأس، ورمى طاهيه بحجر كبير ليقتله. ولكن الطاهي كان قد اكتسب الخلود، فلم يمت، فأخذه ورماه في الماء كي يغرقه، ولكن الطاهي لم يغرق. عندئذ أمسك به الإسكندر وربطه في حجر ثقيل ورماه في قاع الماء لكي يعيش حياته الخالدة مع الأحياء المائية. وهكذا فشل الإسكندر في الوصول إلى الخلود، وهو الذي شقى في سبيل ذلك، في حين حصل عليه شخص آخر لم يكن يسعى إليه.

وكما استغل القاص الشعبي شخصية الخضر في حكاياته عن الإسكندر الأكبر ذي القرنين،' أستغلها كذلك في أنماط أخرى من قصصه ونخص بالذكر هنا سيرة الظاهر بيبرس. وإذا كان الخضر لا يظهر إلا لأولياء الله الصالحين، فقد ظهر دوما للظاهر بيبرس لأنه كما تصوره السيرة، كان على درجة كبيرة من الولاية. وتحكي السيرة على سبيل المثال، أن الملك الصالح نجم الدين أيوب، بعث الظاهر بيبرس وبرفقته الوزير أيبك والقاضي جوان، على رأس جيش إلى أنطاكية، لا لحصارها بل إحضار ملك أنطاكية إليه حيا. فلما حاول الجيش أن يعبر البحر، فوجئ بأن ملك أنطاكية قد أغلق البحر بالسلاسل الضخمة، فوقف حيثما كان. ووجد أبيك وجوان، اللذان كانا يكنان الحقد والغدر للظاهر بيبرس،

وجدا ذلك فرصة لتحريض الجيش على التذمر، فيضطر الظاهر بيبرس إلى العودة دون أن يحقق رغبة الملك، فيأمر الملك عندئذ بقتله. وتذمر الجيش وازداد تمرده عندما اشتد البرد وتفشي المرض بين الجنود، ومع ذلك لم يفكر الظاهر بيبرس في العودة، بل كان يخرج في الظلام وحده يبتهل إلى الله. وذات مرة أبصر مركبا يتجه نحوه ويرسو، ثم تقدم إليه المركبي وحياه، فلما نظر إليه الظاهر بيبرس عرف أنه الخضر، وطلب منه الخضر في الحال أن يركب معه. فلما استقرا في المركب هتف الخضر قائلا: باسم الله مجريها ومرساها. وفي لحظة كان المركب قد وصل إلى شاطئ أنطاكية. عند ذاك قال الخضر للظاهر بيبرس: إذهب إلى باب المدينة وستجد هناك رجلا في انتظارك وسيقدم إليك صندوقا، فخذه منه، ولا تسأله بعد ذلك عن شيء.. ومشى الظاهر بيبرس حتى وصل إلى باب المدينة وهناك قابله رجل وسلم إليه صندوقا. وسأله بيبرس عن اسمه فرد قائلاً: تابعي الذي وراءك سيخبرك بذلك، ثم اختفى الرجل في طرفه عين. ولما عاد بيبرس إلى المركب وجد الخضر في انتظاره. فقال له معاتبا: ألم أنهك عن أن تسأل ذلك الرجل عن شيء؟ ثم ركبا المركب وهتف الخضر قائلا مرة أخرى. باسم الله مجريها ومرساها. فوصل المركب في لحظة إلى الشاطئ الذي كان جيش المسلمين يقف عنده في أشد حالات التململ. فلما استدار الظاهر بيبرس ليصافح الخضر، كان الخضر قد اختفى. وعندما فتح الصندوق بعد ذلك، وجد فيه ملك أنطاكية مغشيا عليه. فأغلق الصندوق وعاد بالجيش قافلا يحمل الغنيمة إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب.

وما تزال شخصية الخضر ماثلة في نفوس الشعب العربي بصفة عامة والشعب المصري بصفة خاصة[١٤] تجسيداً للزمن الأبدي الذي تجدد دوراته ولا ينتهي. فالخضر لم يمت وهو موجود في مكان ما. فإذا ذكره إنسان تقي طيب للاستعانة به في موقف متأزم، حضر الخضر، وإن لم يظهر في صورة مجسدة لكي يسهم مع الناس في حل أزماتهم. وقد يشارك الخضر في ذلك أولياء الله الصالحون ولكن الخضر يختلف عن هؤلاء في أن وجوده لا يرتبط بضريح بعينه لأنه لم يمت، ومن ثم فهو باق بوصفه فكرة مجردة للبقاء الأبدي.

وهكذا نرى إلى أي حد يحن الإنسان الشعبي إلى الزمن الأسطوري حيث يولد كل شيء وحيث لا يفني شيء، وإلى أي حد يدفعه هذا الحنين إلى تجسيد فكرة الزمن الأبدي، في صورة أو بأخرى. حقا إن شخصية الخضر لا تطابق شخصية الملك الصياد تماما، بمعنى أن قصته لم تذكر صراحة أن خصب الحياة مرتبط بشبابه وحيويته، ولكن الخضر على نحو ما صور بوصفه عقلا وروحا أبديين، ربما كان أبعد رمزا وأكثر اتساقا مع فكرة الزمن الأبدي الذي لا ينتهي.

* * *

وعلى الرغم من أن الإنسان الشعبي يقاوم الزمن الحسي عن طريق ممارسته للاحتفالات والطقوس التي يشعر من خلالها بأن حياته تسير في نغمة متناسقة مع لحن الطبيعة المتجددة على الدوام، وعن طريق تجسيد فكرة الزمن اللانهائي، على الرغم من ذلك، فقد حركت حقيقة المصير المقدر له مشاعره بحيث لم يستطع

إخفاءها في تعبيره الأدبي، ولقد رأينا كيف استغلت شخصية الخضر في رواية قصة الإسكندر ذي القرنين، لا بهدف تأكيد هذا الرمز الأبدي لنضرة الحياة الدائمة فحسب بل أكثر من ذلك لتأكيد هذا التعارض بين حياة نضرة خالدة وحياة مؤقتة فانية من ناحية، ورغبة الإنسان الملحة وسعيه في الحصول على الخلود من ناحية أخرى، وحول هذا المعنى يدور كثير من أروع نماذج القصص الشعبي، ونسوق هنا بعضا منها.

قصة لقمان بن عاد صاحب النسور السبعة مشهورة في التراث العربي. فقد روى[١٥] أن لقمان تمنى على الله أن يعيش أطول عمر ممكن فدعاه قائلا:

اللهم يارب البحار الخضر

والأرض ذات النبت بعد القطر

أسألك عمرا فوق كل عمر

"فنودى أن قد أعطيت ما سألت ولا سبيل إلى الخلود. فاختر إن شئت بقاء سبع بعرات من ظبيات عفر، في جبل وعر، لا يمسها قطر، وإن شئت بقاء سبعة أنسر سحم، كلما هلك نسر أعقب نسر، فكان اختياره بقاء النسور. فبينا لقمان يدور ذات يوم في جبل أبي قبيس بمكة، سمع مناديا لا يرى شخصه وهو يقول: يا لقمان بن عاد المغرور، أطلع رأس ثبير، ليس يعدو قدرك المقدور. فطلع رأس ثبير، فإذا بوكر نسر فيه بيضتان قد تفلقتا عن

فرخيهما، فاختار لقمان أحد الفرخين[١٦] ثم عقد في رجله سيرا ليعرفه وسماه المصون. ثم قال: المصون الخالص المكنون، ومحذور السنون، والباقي بعد الحصون إلى آخر الدهن الخؤون". ولكن الزمن ولي على هذا النسر، وكبر وضعف ثم خر ميتا، فجزع (لقمان) لذلك جزعا شديدا، وقال هذا بلاء، وأنشأ يبكي نفسه ويقول:

موت المصون دل على أناً
نذوق الحمام حقا يقينا

ثم منح بعد ذلك النسر الثاني الذي سماه "عوضا"، ولكنه لقى مصيره كذلك بعد وقت. وظلت نسوره تتساقط موتى واحدا تلو الآخر حتى لم يبق إلا النسر السابع. فقال ابن أخ له: "يا عم ما بقى من عمرك إلا عمر هذا. فقال لقمان: هذا لَبَدُ ولَبد بلسانهم (أي بلسان العرب) الدهر، وهو اسم نسر من نسور لقمان. فلما انقضى لبد، رآه لقمان واقفا. فناداه: أنهض لبد! فذهب لينهض فلم يستطع فسقط ومات، ومات لقمان معه".

وقد أغرم القصاصون العرب بتصوير الأنبياء وهم يستقبلون الموت، وربما لم يقاوم نبي الموت، وفقا لرواية هذا القصص، كما قاومه موسى عليه السلام. فقد روى أن الله كلمه قائلا: "يا موسى: إني حكمت على جميع خلقي بالموت. فقال موسى: إلهي وسيدي، إني أخاف من الموت ومراراته. فنزل ملك الموت على موسى وهو جالس يتلو التوراة. فقال: السلام عليكم يا موسى. قال: وعليكم السلام، من أنت؟ فقال: إني ملك الموت جئت

لأقبض روحك. قال موسى: من أين تقبضها. قال: من فمك، قال: كلمت به ربي، قال: فمن يديك، قال: قد أخذت بهما الألواح. قال: فمن أذنيك. قال سمعت بهما الخطب من ربي. فقال له: فمن رجليك. قال: قد وقفت بهما على جبل طور سيناء لمناجاة ربي. فقال له ملك الموت: إني أراك تكلمني كلام من طلب المسكر. فعند ذلك اختلط عقله وقال: ما شربت خمرا قط. فدنا منه ملك الموت ليقبض روحه، فلطمه موسى على عينه ففقأها. فرجع ملك الموت إلى الله عز وجل فقال: يارب، إنك أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت ففقأ عيني. فرد الله عليه عينه وقال له: إرجع إلى عبدي وقل له ضع يدك على متن ثور، فلك بكل شعرة تحصل تحت يديك عمر سنة. فقال موسى: وما بعد ذلك؟ قال: الموت. فقال: يا رب الموت أحب إلى الآن. فقبض ملك الموت روحه".[١٧] وقد قيل: "إن ملك الموت كان يجيء عيانا، حتى جاء إلى موسى فلطمه ففقأ عينه، فأصبح يجيء مستترا"[١٨].

وتعد ملحمة جلجامش البابلية أروع عمل أدبي قديم عالج موضوع صراع الإنسان الفاني مع الموت.

لقد كان **جلجامش** ملك "ورقا". وكان ثلثه إنساناً وثلثاه الآخران إلها. وكانت صورته الجسدية تثير الرهبة والخوف معا. كأن جميع أهل ورقا في خدمته، الأقوياء والأسياد والحكماء والصغار والكبار، بل والنساء كذلك فلم يترك فتاة لحبيبها، ولم يترك زوجة لزوجها البطل، حتى ارتفعت أصواتهن بالشكوى إلى الإله الكبير، رب السماء ورب "ورقا" لقد خلقت الوحوش يفوقها

قوة، فمثله لم نر أحدا، لم يترك الحبيبة لحبيبها، ولا البطلة لزوجها البطل. واستمع الإله "أنو" لشكواهن، ودعا الإلهة "أورورو" خالقة البشر وقال لها: لقد خلقت الوحوش يوم أن خلقت مردوك، إله مدينة بابل، فاصنعي الآن مخلوقا يشبه **جلجامش** ويكون منافسا له، حينئذ يعم "ورقا" الهدوء. وخلقت الآلهة "**أنجيدو**" إنساناً قويا يملأ جسده الشعر، ولا يعيش إلا مع الحيوان البري، وكان يقف متصدرا الغابة مثيرا الرعب في قلب كل من يقترب من الغابة. وسمع **جلجامش** بهذا الإنسان الغريب ينافسه في قوته، فعزم على أن يحتال عليه لإخراجه من الغابة. وكان قد رأى رؤيا فسرتها له أمه على أن مناوئا سيظهر له في الميدان، وسيصبح فيما بعد رفيقا له في الكفاح. ونجح **جلجامش** في إخراج "**أنجيدو**" من مملكة الحيوان إلى مملكة الإنسان، بل إلى مملكة البطولة التي لا يقف في سبيلها أي عائق.

وضجت الآلهة بمغامرات **جلجامش** التي كثيرا ما كانت تتجاوز عالم البشر إلى عالم الإلهة، ولهذا فقد عزمت على أن توجه إليه ضربة قاصمة تصرفه كلية عن تلك المغامرات الجريئة التي يتحدى بها الآلهة.

قال له **أنجيدو** ذات يوم: "إنني رأيت حلما أقض مضجعي،' رأيت أن السماء تبرق وأن الأرض تهتز، ورأيتني أقف وحيدا أمام مخلوق وجهه مكتئب أسود كالظلام. لقد كان يبدو أمامي شرسا ككلب المفاوز. وفي لحظة قذف بي بعيدا في حفرة، ثم حولني إلى شكل آخر، واستبدل بذراعي جناحين وقال: الآن

طر بجناحيك بعيدا حتى تصل إلى طريق لا مخرج للإنسان منه، فسر فيه، حتى تقابل بيتا لا مخرج له، فأدخل فيه. هناك يعيش الناس في حلكة دامسة، فهم عن الضوء في غنى" .

ولم يفهم **جلجامش** أن هذه الرؤيا كانت نذيرا بموت صديقه ورفيقه في الكفاح، إذ لم يكن قد فكر قط في الموت من قبل. وفي يوم آخر استيقظ **أنجيدو** من نومه مذعورا ودخل على جلجامش وقال له: "لقد تدبرت الآلهة أمرها يا جلجامش وأحسبها أنها تدبر هلاكي. إن حلمي الليلة كان مزعجا، لقد أنبأتني بخطر عاجل. فقد أبصرت نسرا عظيما هوى من السماء ثم حملني في الفضاء وظل يصعد بي إلى السماء، ثم قال لي: إلق ببصرك الآن إلى أسفل، كيف ترى الأرض وكيف ترى البحر؟ فلما نظرت وجدت البحر كالقصعة والأرض كقطعة العجين، عندئذ تركني أهوى من بين مخالبه، فهويت من أعلى محطما".

ولأول مرة يفكر **جلجامش** في خوف من سلطان الآلهة، إذ قال لصديقه: الويل لنا إن كانت الآلهة قد أرادت بنا سوءا".

ثم تملكت **أنجيدو** الحمى ورقد طريح الفراش، ولكنه كان مازال يتحدث إلى **جلجامش**، وكان قلبه ما زال يخفق. وفجأة كف **أنجيدو** عن النظر إلى صديقه، وكف قلبه عن الخفقان. وفزع **جلجامش** وهزه في عنف وهو يصرخ به: "صديقي أنجيدو، ألم تعد تسمعني، ألم تعد تراني؟ بل ألم تعد ترى الضوء؟".

وظل **جلجامش** راقدا بجانب صديقه يبكيه بعويل مزعج طيلة ستة أيام وست ليال، ثم حفر له في يوم السابع ودفن. وخرج هائما على وجهه في البراري. فقابله رجل أزعجه منظر الملك فاستوقفه وسأله: "ما الذي جعل وجهك هكذا شاحبا؟ وما الذي أظلم روحك وأحنى جسدك؟ ولماذا يمتلئ قلبك بشكوى مريرة تود أن تفرغها في أسى؟" وفتح **جلجامش** فمه في مشقة وقال: "صديقي أنجيدو الذي ارتبط بي كعضو من جسدي.. صديقي الذي تجولت معه، وصارعت الألهة معه قد وصل إلى المصير الإنساني.. كيف يمكنني أن أستقر وبمن يمكنني أن أستغيث بعد أن أصبح صديقي ترابا؟ وهل سألقى يوما مثل هذا المصير ثم أظل راقدا إلى الأبد؟".

وكان **جلجامش** يعلم أن **أوتنابشتيم** الإنسان قد حصل على الخلود، وأنه يستقر هناك عند نهاية بحار الظلمات، فقرر أن يرحل إليه لعله يكشف له عن سر خلوده. إن الرحلة محفوفة بالمخاطر، والأشكال المهولة تسد طرقاتها، ومع ذلك فقد أصر جلجامش العنيد على الرحيل، إذا كان الأمل عنده أقوى من الخوف.

واستطاع **جلجامش** أن يذلل كل صعوبة في رحلته، وكان كلما استوقفه حارس مفزع من حراس العالم الآخر ويتأهب لطرده والحيلولة بينه وبين السير في الطريق الذي يحرسه، يعود فيسمح له بالدخول عندما يقرأ في عينه الإصرار والألم معا.

وأخيرا وصل **جلجامش** إلى **أوتنابشتيم** في سفينة يقودها **نوتي أوتنابشتيم** نفسه، على الرغم من أن هذا النوتي قد حذر من أن يأتي بإنسان فانٍ إلى هذا المكان. فلما لمح **أوتنابشتيم جلجامش**

برفقة النوتي، صرخ بنوتيه لأنه يجيئه لأول مرة مصطحبا إنسانا فانيا، ورد **جلجامش** على **أوتنابشتيم** قائلا: إنني **جلجامش** الملك، وقد أتيتك من مكان بعيد للتحدث معك فيما يزعج خاطري، لقد عذبني موت صديقي أنجيدو، ولذلك فقد جئت إليك لعلك تشفي غلالة صدري، فترشدني إلى الوسيلة التي حصلت بها على الخلود، لعلي أستطيع أن أرد الحياة لصديقي وأن أحتفظ بها لنفسي. "عند ذاك رد عليه أوتنا بشتيم قائلا: "أترك شكواك وغضبك جانبا يا جلجامش إن الفرق كبير بين الآلهة والإنسان. الموت للإنسان والدوام للآلهة. وإذا كان ثلثاك إلها، فإن ثلثك الإنساني يدخلك في زمام البشر. ما أن يستقبل المولود ضوء الحياة، حتى يجتمع "أونانكي" الروح الأكبر مع ماميثوم الإله الخالق للمصاير، ثم يدبرا معا أمر هذا المولود، فيقررا معا ولادته ووفاته. أما يوم ولادته فيعلنان عنه، وأما يوم وفاته فيحتفظان به".

وألح **جلجامش** على **أوتنابشتيم** أن يكشف له سر خلوده. وكشف له أوتنابشتيم السر. لقد كان صراعا بين الآلهة أدى إلى أن يأمر بعضها بإغراق الأرض ومن عليها. واختلفت الآلهة إثر ذلك، وعقدت مجمعها وقررت فيه أن تنقذ إنساناً واحداً من البشر حتى لا تفنى البشرية عن آخرها، وكان هذا الإنسان هو أوتنابشتيم. إنها حادثة حدثت مرة، ولكنها لن تحدث مرة أخرى، كما قال له **أوتنابشتيم**. وبعد ذلك أمره أوتنابشتيم أن يصعد المركب ويعود "ورقا". ولكن زوجة أوتنابشتيم التي كانت تستمع إلى جلجامش في ألم، توسلت إلى زوجها أن يكشف له عن سر آخر للخلود، فأشفق أوتنا بشتيم عليها وأفشى لجلجامش عن مكان عشب الخلود في

البحر الذي سوف يبحر فيه، فإذا عثر عليه وأكل منه أصبح خالدا، ودب الأمل في نفس جلجامش مرة أخرى، وانتعشت روحه، وفي الحال استقل المركب مع النوتي إلى المكان الذي حدده جلجامش. وهناك عثر على عشب الخلود، فأمسكه بين يديه والأمل يحلق به، ولكنه لم يشأ أن يأكل منه إلا بعد أن يزيل عنه غبار الرحلة ومتاعبها. ولهذا فقد ألقى العشب على الشاطئ ريثما يستحم، وما كاد يخرج من الماء في اتجاه الشاطئ، حتى أبصر حية تقضم آخر قضمه في العشب. فنظر إليها جلجامش في ذهول، وهي تخلع عنها جلدها القديم وتكتسي جلدا جديدا. لقد عثر على عشب الخلود، ولكنه حرم منه واستفاد به حيوان دنيء لم يسع إليه، ولن يستمتع بمفعوله.

وهكذا باءت رحلة **جلجامش** بالفشل، ولم يكن لديه من سبيل سوى أن يرحل إلى "ورقا" وينتظر موته[١٩].

والعلاقة واضحة بين الحكايات الثلاث التي سقناها، وهي تعد جميعا من تراث الشعوب. فالبطل فيها يتمنى الخلود ويسعى إليه، ويظل الأمر يساوره زمنا في الحصول على الخلود. ولكنه يقر في النهاية بأنه لن يحصل عليه لأنه ينتمي إلى الجنس البشري. وعلى الرغم من أن هناك ما يسمى في القصص الشعبي بعشب الخلود أو ماء الحياة الذي قد ينجح الإنسان في الوصول إليه على نحو ما فعل الإسكندر وجلجامش، ولكن الوصول إليه لا يعني الحصول على الشيء، وكأن الفنان الشعبي شاء أن يؤكد أن الخلود

موجود، وهو قريب من الإنسان، لأنه يمثل جوهر الكون الذي يعيش فيه، وإن فنى هو جيلا بعد جيل.

وطبيعي أن يكون الإنسان الشعبي العصري أكثر واقعية ممن سبقه، ومن ثم فإن تعبيره يكون أكثر تشاؤما إذا ما تناول هذه الظاهرة، وقد وردت في أكثر من رواية عربية أخرى، أن رجلاً كان يعيش في رغد من العيش، ولكن الأحداث أطاحت بثروته. فخرج من بيته ذات يوم حزيناً وجلس عند ضريح السيدة زينب. فمر أمامه رجل شيخ أخذ يتحدث معه وعرف منه قصة ضياع ثروته، فقدم الشيخ له عباءة وطلب منه أن يدخل فيها. فلما فعل الرجل هذا وجد نفسه في مكان آخر لم يعرفه من قبل، كما وجد نفس يقف أمام حانوت. ولما كان جائعاً، فقد طلب من صاحب الحانوت أن يعطيه رغيفا يقتات به. فسأله صاحب الحانوت عما إذا كان غريبا في هذا البلد، فأجابه بالإيجاب. عند ذاك أخبره بأن الحظ يبدو أن سيحالفه، إذ أن الملك قد أعلن أنه سيزوج إبنته لأول غريب تطأ قدمه المدينة. ثم أصطحبه إلى الملك الذي وافق على زواجه من إبنته بشرط واحد هو ألا يتدخل فيما لا يعنيه. ولم يعترض الرجل الغريب على الشرط، إذا اعتقد أنه من السهل تحقيقه في يسر. وذات يوم كان يسير في حديقة القصر، فأبصر رجلا دائم الصعود والهبوط على شجرة، وكان يأكل في أثناء ذلك ثمارها الحلوة والفجة على السواء. فأخذ ينظر إليه في تعجب ثم سأله: لماذا تصعد الشجرة وتهبط عليها على هذا النحو؟ ولماذا لا تستقر في مكان واحد منها وتلتقط ثمارها الحلوة وتأكلها حتى تشبع؟ عندئذ رد عليه الرجل قائلاً: إن هذا أمر لا يعنيك وليس من

حقك التدخل فيه. وفي الحال تذكر الرجل الشرط الذي اشترطه عليه الملك، ولكنه تصور أن أحدا لم يره، وعندما عاد إلى زوجته فوجئ بقولها: إنك أصبحت محرما علي بعد أن نقضت العهد الذي أخذته على نفسك. إنك تصورت أنني لم أرك، ولكن الحجاب مكشوف عن بصري، ولهذا فقد رأيت كل شيء. فخرج الرجل من عندها خائبا وسار في طريقه إلى دكان الخباز. وتوسط له الخباز عند الملك كي يعفو عنه ويزوجه ابنته الثانية. ووافق الملك على ذلك ولكنه اشترط عليه الشرط نفسه. وأيقن الرجل أنه لن يُخطئ مرة أخرى، وذات يوم كان يسير على شاطئ نهر فأبصر رجلا يملأ دلوا بالماء حتى يطفئه ثم يسكبه في أرض عطشى. فوقف متعجبا من صنع هذا الرجل وسأله: لماذا لا تهتم بالأرض المخضرة، فرد عليه الرجل قائلا: إن هذا أمر لا يعنيك وليس من حقك التدخل فيه. وأدرك الرجل أنه قد نقض العهد للمرة الثانية، فلم يعد إلى القصر، بل رجع إلى صاحب الحانوت ليحكي له في أسف أنه قد نقض العهد للمرة الثانية فتوسط صاحب الحانوت له عند الملك حتى يزوجه ابنته الثالثة بعد أن وعده أن الرجل سيبقى على وعده ولن يتدخل قط بعد ذلك فيما لا يعنيه ووافق الملك على زواجه من الإبنة وفقا لهذا الشرط. وقرر الرجل ألا يخرج في مكان تطأه الأقدام حتى لا يبصر ما يمكن أن يدفعه إلى السؤال. فخرج ليسير على جبل بعيد لا تطأه قدم، وما كاد يسير بضع خطوات حتى أبصر جماعة يشدون طوقا فيما بينهم دون انقطاع أو كلل، بحيث كان يحاول كل منهم أن يشد الطوق نحوه. فوقف الرجل ينظر إليهم في دهشة ثم سألهم عما هم فاعلون، فردوا عليه

بأن هذا أمر لا يعنيه ومن ثم لا يجوز له السؤال عنه. وعند ذاك أدرك الرجل أنه قد تجاوز المحظور للمرة الثالثة، وكان هذا كافيا لأن يفكر في ألا يعود إلى القصر أو إلى صاحب الحانوت. ثم ارتدى عباءته فإذا به يجد نفسه مرة أخرى عند ضريح السيدة زينب، والرجل الشيخ يقف أمامه مبتسما. فسأله الرجل الشيخ: هل كنت في علم أم حلم؟ فقال له الشيخ: بل كنت في علم وعليك أن تقص عليّ ما رأيت. فقص عليه الرجل ما حدث له مع الرجال الغرباء الذين كانوا يسلكون على نحو غريب دفعه للتدخل في أمرهم. ثم قال أنه لم يفهم شيئا عن سلوكهم الغريب، رغم محاولته التدخل في شئونهم. عند ذاك شرع الشيخ يفسر له ما غَمُضَ عليه فقال: إن الرجل الذي رأيته يصعد الشجرة ويهبط عليها دون ملل أو كلل، وكان في أثناء ذلك يأكل الثمرة الحلوة والفجة معا هو عزرائيل قابض الأرواح، إنه دائم التجوال بين الناس يخطف أرواح الأخيار والأشرار على السواء. أما الرجل الذي رأيته لا يعدل في توزيع الماء بين الأرض المخضرة والأرض الجدباء، فهو الملك المكلف بتوزيع الأرزاق. إنه يوزع الرزق حسبما تراءى له، فقد يزيد في رزق الثري ويقتر في رزق المُعدم.

وأما الناس الذين يشدون الطوق فيما بينهم، فهم أناس هذه الحياة. إن كلا منهم يحاول أن يشد الحياة نحوه ويحرم منها غيره، على الرغم من علمه أن نصيب كل إنسان من الزرق مقدر له، وعلى الرغم من علمه أن الموت هو نهاية سعي الإنسان في الأرض. فهذه الحكاية جمعت بين مشكلتين، إحداهما مشكلة اجتماعية ومشكلة الموت على أساس أنهما معا مشكلتان غيبيتان،

ليس من حق الإنسان العادي التدخل فيهما والسؤال عنهما. وهذا ما رمت إليه الحكاية بشرط الملك الذي كان على الرجل بمقتضاه ألا يتدخل فيما لا يعنيه.

– ٥ –

لقد فكر الإنسان الشعبي إذن في الزمن، رغم سعيه الدائم، إلى تجديد دورة الحياة، ذلك أن الموت حقيقة واقعة. حقا إنه يعتقد في أن الأموات لا ينفصلون عنه، بل يشاركونه أحداث حياته المعاشة. ولكنه يعلم كذلك أنهم يفعلون ذلك بعد أن يصبحوا مجرد أرواح أو أشباح، وبعد أن يغادروا عالمهم الحسي إلى عالم آخر غير مرئي، ولا يدري كنهه على وجه التحديد، وكان من الطبيعي بعد أن أدرك الإنسان ذلك، أن يفكر في سبب إبتلائه بالموت، فإذا كانت الآلهة خالدة، فلماذا لا تمنح الإنسان الخلود على نحو ما تحقق لها؟ وهل قررت له هذا الحرمان بدافع حقدها عليه، أم أن غباء الإنسان ونوازعه الإنسانية كانا السبب في ابتلاء الإنسان بالموت؟

لقد رفض الإنسان البدائي الاعتقاد في أن الموت قدر للجنس البشري منذ أنن وجد على سطح الأرض، ولكنه عندما رأى من ناحية أخرى أن الموت حقيقة واقعة، حاول تفسير حدوثه من خلال تصورات فلسفية إنعكست في حكاياته، وجوهر هذه الحكايات جميعا يتلخص في أن الإنسان كان قد منح الخلود في بادئ الأمر، ولكنه فقد هذه المنحة إما بسبب غبائه، أو بسبب خداع الحيوانات الدنيا له كما يتضح ذلك من الأمثلة الآتية..

لقد استرعى نظر الإنسان البدائي عملية نمو القمر حتى يصبح بدراً، ثم تضاؤله واختفائه بعد ذلك. ومن ثم فقد تصور أن القمر يخوض كل شهر تجربة الحياة والموت ثم البعث. ومعنى هذا أن القمر عندما يختفي ثلاثة أيام، وهي المدة التي تفصل بين اختفائه وظهوره من جديد، يموت موتا مؤقتا ثم يعود للحياة مرة أخرى، فيبدأها من بدايتها، كما يبدأها الطفل، صغيرا ثم يكبر. ومن ثم كان القمر، كما سبق أن ذكرنا في بداية بحثنا، أوضح نموذج أو مثال لتجدد الحياة على الدوام، ذلك التجدد الذي يحن إليه، ويمارس طقوسه بشكل أو بآخر.

ويعنينا من كل ذلك أن الإنسان نظر إلى القمر بوصفه إلها. وإذا كان هذا الإله قد منح الخلود على نحو ما يراه حسيا، فإن هذا الإله لم يبخل بهذه النعمة على البشر ولهذا فقد قرر، بعد تدبر، أن يرسل رسولا للإنسان يخبره بأن لا يحزن إذا ما فارقت الروح جسده، لأن هذا الفراق لن يكون أبديا، بل سوف تعود الروح إليه ويعود للحياة مرة أخرى، تماما كما يحدث معه. وكلف القمر الأرنب أن يحمل رسالته إلى البشر ويقول لهم: كما أني أموت ثم أحيا بعد ذلك، فكذلك أنتم سوف تموتون ثم تحيون مرة أخرى. ولكن الأرنب أبلغت الرسالة خاطئة إلى الناس إما عمدا أو سهوا. فلقد قالت لهم: إن القمر يموت ثم يحيا بعد ذلك، أما أنتم فقد شاء لكم الإله القمر أن تموتوا إلى الأبد. وعندما عادت الأرنب إلى القمر وأعادت عليه الرسالة كما أبلغتها، غضب القمر وضربها على وجهها ففلق شفتها العليا. وقد ردت عليه الأرنب فلطمته على

وجهه، فخدشته ثم ولت مسرعة، وما تزال الأرنب تعدو حتى اليوم.

ويقال إن رسول القمر أبلغ الرسالة صحيحة إلى البشر فقبلوها.. ثم حدث بعد ذلك أن ماتت أم رجل. وظل الابن ينتظر عودة الروح إليها أياما طويلة، ولكن الأم ظلت راقدة أمامه بلا حراك، فبدأ الرجل يشك في رسالة القمر، وحاول القمر إقناعه بأن أمه لم تمت، وإنما هي نائمة إلى حين، فعارضه الرجل وصرخ فيه قائلا: لا بل إنها قد ماتت ولن تعود إلى الحياة مرة أخرى. فاغتاظ القمر وصفعه على وجهه ففلق شفته ثم مسخه أرنبا لأنه، كما قال القمر، قد عارضني ورفض أن يقتنع برسالتي. ثم قرر القمر بعد ذلك أن يكون مصير الإنسان الموت الأبدي. ولعل هذا هو السبب في أن بعض القبائل ترفض أكل لحم الأرنب، لأنها وفقا للروايتين، هي التي تسببت في محنة البشرية.

وتروي بعض الشعوب البدائية كذلك أن الإله كان في الزمن القديم يعيش بين الناس ويتحدث معهم وجها لوجه، ولكن تلك الأيام السعيدة لم تدم. فذات يوم كانت بعض النسوة يسحقن الشعير ونظرن، فإذا بالإله يقف بجوارهن يستمع إلى حديثهن ويشاهد ما يفعلنه، فتضايقت النساء وطلبن منه أن يبرح هذا المكان. فلما أصر الإله على الوقوف، أمسكن بحفنة من الشعير ورمينه بها. فغضب الإله وصعد إلى السماء ولم يعد إلى الأرض مرة أخرى. ومع ذلك فإن الإله الرحيم أرسل رسالة إلى الناس يقول لهم فيها: إن هناك شيئا يسمى الموت وسوف يصيبكم جميعاً.

ولكنه لن يقضي عليكم إلى الأبد، إذ سوف تصعدون إليّ بعد ذلك وتعيشون معي في السماء. واختار الإله الجدي رسولا ليبلغ الناس الرسالة. ولكن الجدي تلكأ في الطريق، ورآه الإله وهو رابض مستريح يقضم الأعشاب، فأسرع الإله وأرسل الشاة في إثره لتبلغ الرسالة، ولكن الشاة أبلغت الرسالة خاطئة، إذ قالت للناس: إن هناك شيئا اسمه الموت، وسوف يقضي عليكم لا محالة، فلما وصل الجدي بعد ذلك وأبلغهم الرسالة الصحيحة، لم يصدقها الناس وقالوا له: إن ما ذكرته الشاة هو الرسالة الصحيحة لأنها وصلت قبلك. وأما ما قلته أنت فهو كذب ملفق[٢٠] ومعنى هذا أن الناس قد قبلوا الموت بسبب غبائهم، إذ أنهم لم يستطيعوا آنذاك أن يتصوروا ماهية الموت.

وهكذا نرى أن السبب في ابتلاء الإنسان بالموت يرجع في بعض الحكايات إلى خديعة الحيوان، وفي بعضها الآخر إلى غباء الإنسان وسذاجته. إذ لماذا لم يصدق الرجل الذي ماتت أمه، وظل يصرخ في وجه القمر بأنه غير صادق وأن أمه ماتت إلى الأبد، حتى أغضب القمر فحكم على الجنس البشري كله بالفناء، ولماذا رفض الناس رسالة الجدي الصحيحة وأصروا على أن الرسالة التي أبلغتها الشاة والتي بمقتضاها يفني الإنسان إلى الأبد، هي الرسالة الأصلية؟

ويتمثل غباء الإنسان في رفضه العودة إلى الحياة في حكاية طريفة أخرى تروى على النحو التالي:

اجتمعت الآلهة ذات يوم لتقرر مصير الإنسان، فاقترح أحد الآلهة أن يغير الإنسان جلده كلما بلى، وبذلك يتجدد شبابه.. وعلى الإنسان الهرم في هذه الحالة أن يذهب إلى شاطئ البحر وينزع جلده القديم، ويصطاد جلدا جديدا من البحر ويرتديه.

وذات يوم شعرت امرأة بأنها قد هرمت، فذهبت إلى شاطئ النهر لتخلع جلدها القديم وترتدي جلدا جديدا، ثم عادت إلى بيتها بعد أن ارتد إليها شبابها. فلما أبصرها حفيدها الذي كان يعيش معها أنكرها، وعبثا حاولت أن تقنعه بأنها جدته التي يحبها، فقد استمر حفيدها في عزوفه عنها، لأنه لا يود أن تكون جدته على هذا النحو من الشباب. وعند ذاك عادت الجدة آسفة إلى شاطئ البحر مرة أخرى حيث اصطادت جلدها القديم وارتدته، وفرح حفيدها بلقائها عندما عادت إليه مرة أخرى في صورتها القديمة المألوفة لديه. أما الجدة فقد امتلأت حزنا على فقدانها نعمة تجدد شبابها، بل تجدد شباب الجنس البشري بأكمله، ذلك أن الجنس البشري قد حرم نعمة تغيير جلده إثر هذا الحادث. وقد كان في وسع الجدة أن تصر على ارتداء جلدها الجديد حتى يتعود حفيدها منظرها على هذا النحو. ولكن الإنسان البدائي شاء أن يعبر عن فلسفة أخرى تبعث من إحساسه بسيطرة الزمن على الإنسان، وهي أن لكل عمر سحره، وأن شخصية الإنسان وسلوكه يتحددان بعمره. والطفل في هذه الحكاية لم يكن يهمه أن تعود الجدة إلى شبابها بقدر ما كان يهمه أن يحتفظ بحبه لشخصها، الذي تكيف على هذا النحو بتقادم السنين عليه، أما إذا ارتدت الجدة إلى شبابها، فلابد أن يتغير سلوكها وفقا لذلك وهذا ما يرفضه الحفيدات ولهذا

فقد صرخ الطفل عند رؤية الجدة الشابة، وهدأ روعه عند رؤية الجدة الهرمة، وهي مفارقة قد تبدو غريبة، ولكنها تحمل جانبا من جوانب فلسفة الزمن.

وأخيرا هناك حكاية أخرى تحكى أن الآلهة فزعت لتكاثر الناس في الأرض، وخشيت أن تضيق بهم الأرض في يوم ما، لهذا فقد عقدت مجلسها وقررت أن يكون مصير الإنسان كمصير شجرة الموز، فشجرة الموز تكبر ثم تموت تاركة وراءها ذريتها، وهكذا ينبغي أن يفعل الإنسان حتى تجد الأجيال الجديدة مكانا لها على وجه الأرض، وقد ارتضى الناس هذا الحكم ونفذوه، ومازالوا ينفذونه حتى اليوم.

ومع أن الناس ابتلوا إثر هذه الأحداث بالموت، فإن هذا لم يؤثر في نفوسهم كثيرا، ذلك أن الموتى كانوا يختلطون بهم يوما في كل عام، وكانوا يحتفلون بهذا العيد الموسمي لهذا الغرض. ثم حدث أن توفيت امرأة تاركة وراءها إبنة حبلى، ولما ولدت الأم الطفل، لم يكن لديها الغذاء الكافي لإطعامه، انتهزت فرصة وفاة رجل وأرسلت معه رسالة لأمها ترجوها فيها أن تحضر لإبنتها غذاء من عالم الموتى، فحملت الجدة سلة مملوءة بالنبات، ورحلت إلى أرض الأحياء. وعندما وصلت إلى بيت ابنتها، أخذت تفلح الحديقة لتزرع النبات الذي أحضرته. وبينما كانت ابنتها تطل من النافذة، أبصرتها وأنكرتها، إذ كانت تبدو غريبة تماما عن الأحياء، ولم تستطع الإبنة مقابلتها وهي على هذا النحو، بل صرخت في وجهها من بعد وطلبت منها أن تعود على الفور إلى أرض

الأموات. فغضبت الأم وقالت لابنتها: "لماذا تطردينني على هذا النحو؟ ألم أزرع النبات لحفيدي ليتغذى من ثمره؟ إنني ذاهبة". ثم أخذت ثمرة من ثمار جوز الهند وشقتها إلى نصفين، وأعطت لابنتها النصف الذي لا يبصر الإنسان من خلاله شيئا، واحتفظت لنفسها بالشق الذي يتمكن الإنسان الرؤية من خلاله،' ثم قالت لابنتها، من الآن فصاعدا لم يعد الأحياء يرون الأموات رأى العين. أما نحن فسوف نراكم من خلال شق ثمرة جوز الهند الذي احتفظنا به لأنفسنا، ورحلت[٢١].

ومعنى هذا أن الإنسان قد سلم في نهاية الأمر بأن الموت قد قدر له، وأن الأموات يعيشون في عالم منعزل عن عالم الأحياء، بحيث لا يتمكن الأحياء من رؤيتهم، وإن تمكنوا هم من رؤيتهم في عالم الأحياء، والإطلاع على ما يجري بينهم. ومهما تكن الأسباب التي أدت إلى ابتلاء الإنسان بالموت، فإن السبب لا يرجع قط إلى حقد الآلهة على الإنسان، بحيث شاءت أن تحرمه من نعمة احتفظت بها لأنفسها، والأحرى أن وسيلة الاتصال المباشر بين الناس والآلهة لم تكن ميسرة بحيث حدث تحريف في تبليغ رسالة الآلهة إلى الإنسان، أو رسالة الإنسان إلى الآلهة.

هذا التفاؤل الذي يعد من أبرز خصائص الإنسان الشعبي منذ القدم، مازال يتصف به الإنسان الشعبي المعاصر. فهو يتفاءل بدعاء شخص له بطول العمر إذا ما عمل له عملا خيّرا، وعلى الرغم من اقتناع الرجل الشعبي بأن الأجل محتوم، وأن موت

الإنسان مقدر بزمان ومكان محددين، إلا أنه يسعد بهذا الدعاء لاعتقاده بفاعليته.

تحكي حكاية معاصرة أن فلاحا كان يعمل في حقله الذي يقع بالقرب من المقابر، وذات يوم بينما كان يعمل في الحقل، سمع صوتا يقول له: إن فلانا سوف يُحمل إلى ذاك المكان وبالمثل فلانة. أما فلان فقد كان جاره، وأما فلانة فكانت زوجته. وعاد الرجل إلى بيته حزينا ولكنه لم يخبر زوجته بأي شيء. وفي الصباح سمع صراخا وعويلاً مصدره بيت جاره، فأيقن أن جاره قد فارق الحياة كما أخبره الصوت. وإذن فسوف تموت زوجته حتما. ولكنه نظر إلى زوجته فوجدها تمتلئ بالنشاط والحيوية، ولهذا فقد سلم أمره لله ورحل إلى حقله. فلما عاد إلى بيته في المساء فوجئ بأن امرأته ما تزال في نشاطها وحيويتها. فسألها عما فعلته طوال النهار، فحكت له أنها فرغت من أعمال المنزل ثم أعدت له الطعام وأخذت تنتظره. فلما تأخر عن موعده، وكانت تشعر بالجوع، أعدت لنفسها طعاما سريعاً. وما كادت تجلس لتأكله حتى طرق بابها طارق جائع وطلب منها أن تمنحه رغيفا من الخبز يسد به رمقه. فرفعت الأكل كله الذي كان أمامها وأعطته للشحاذ الذي دعا لها بطول العمر. وسكت الرجل وظل يتوقع في كل لحظة أن تسقط زوجته ميتة. فلما استيقظ في الصباح كانت زوجته ما تزال نشطة قوية، فودعها وانصرف إلى حقله. وهناك تحدث إلى الصوت الذي سمعه وقال له: "إنك قلت أن فلانا سوف يحضر إلى هذا المكان في الغد وكذلك فلانة، وقد حضر فلان حقا، ولكن فلانة ما تزال على قيد الحياة قوية ومليئة بالحيوية. فطلب

منه الصوت أن يرفع بصره إلى السماء. فلما فعل الرجل، أبصر حجرا كبيرا يهوى على رأس زوجته ولكن طبقا به طعام، ورغيف حال بينه وبين السقوط. عندئذ تذكر الرجل قصة الشحاذ الجائع الذي أطعمته زوجته بطعامها، فدعا لها الشحاذ بطول العمر".

وعند ذاك قال الفلاح لنفسه: "حقا، إن اللُّقَم تمنع النِقَم".

نستطيع أن نستخلص من كل ما أوردناه ما يلي:

أولاً: إن ارتباط الإنسان الشعبي نفسيا بالزمن الأسطوري حيث يولد كل شيء من جديد، كان سببا وراء نزوعه الدائم إلى تجدد حياته. وهو يفعل هذا من خلال ممارساته واحتفالات وتصوراته.

ثانياً: وهذا لا يعني أن فكرة الموت لم تزعج الإنسان الشعبي، وأنه لم يتساءل عن سبب ابتلائه بالموت، ولكنه عندما فعل ذلك، كانت إجابته نابعة من طبيعته المتفائلة بصفة عامة، وهي تلك الطبيعة التي تتجنب التفلسف الذي قد يفقده الإحساس بقيمة الحياة وجوهرها الحقيقي. ومن ثم فقد رأى أنه قد ابتلى بالموت بسبب سلوك غبي من الإنسان، أو بسبب خداع الحيوان له. أما الآلهة فهي بريئة من أن تتهم بابتلائها الإنسان بالموت.

فإذا كاد تعبير الإنسان الشعبي يقترب من الحس المأساوي كما هو الحال في قصة الإسكندر الأكبر، غلبته طبيعته المتفائلة وجعلته يذكر شخصية الخضر ويؤكد تجسيدها فكرة شباب الحياة الدائم.

ثالثاً: في ضوء هذه الفلسفة العامة التي نستخلصها من التراث الشعبي ومن سلوك الإنسان الشعبي، نستطيع أن نقرر أن ما ورد في التراث الشعبي، وهو في الحقيقة قلة، معبرا في حزن عن مأساة الإنسان الذي تنتهي حياته بعد كفاح طويل بالفناء، ليس سوى تعبير عن إحساس مؤقت باليأس، ولكن ما يلبث هذا الإحساس أن يغلبه الشعور العام بتلك القوة الدافعة المتدفقة القادرة على تجديد الحياة وبعثها من جديد.

-٦-

وعلى الرغم من أن الهِرَمْ سبيل إلى الجدب، والجدب سبيل إلى الفناء، فإن تلك النظرة السلبية إلى الشيخوخة يعوضها ما اكتسبه الإنسان الهَرِم من تجارب وخبرة وحكمة. ومعنى هذا أنه إذا كان الإنسان الهرم يرمز إلى اضمحلال الحياة وتدهورها، فإنه في الوقت نفسه يمثل قمة الحكمة والتجربة. ومن هنا استغلت شخصية الرجل العجوز استغلالا رائعا في القصص الشعبي والأمثال الشعبية.

فقد ألفنا ظهور شخصية الرجل العجوز فجأة للبطل في القصص الخرافي، وذلك عندما يصبح البطل في حيرة من أمره، وتعز عليه النصيحة. ويحدث هذا عندما يعتزم البطل القيام بمغامرة من أجل الحصول على شيء محدد من العالم المجهول. عندئذ يخرج من بيته وحيدا، ويسير في طريق يبدو له أول الأمر معلوما، ولنه ما يلبث أن يصادف مفترقا من الطرق، فيقف فجأة ولا يدري أي طريق يسلك. في تلك اللحظة يظهر له شيخ عجوز

يسأله من تلقاء نفسه عن هدفه، وعندما يجيبه بأنه يعتزم الوصول إلى الأميرة المسحورة أو الليمونات الثلاث، أو إلى أي شيء من تلك الأشياء الغريبة التي تعد رموزا في القصص الشعبي، أشفق عليه الرجل العجوز من مخاطر الطريق الوعر، الذي ينبغي عليه أن يسير فيه لكل يصل إلى مأربه، وينصحه بدافع هذا الإشفاق، أن يعود مدرجة. ولكنه عندما يرى أن الشاب مُصرٌ على الوصول إلى هدفه، وأنه خاض في سبيل ذلك الأهوال، يكشف له الرجل العجوز عن الطريق الصحيح الذي يوصله مباشرة إلى غرضه، ويحذره من أنه سوف يقابل قوى شريرة في شكل مارد أو وحش مفترس أو تنين يقف متربصا به ويود أن يبتلعه. ثم يقدم له الشيخ في النهاية، بدافع الحرص الشديد على نجاح مهمته، أداة سحرية. كأن تكون حصانا، أو عصا، أو أي شيء آخر. فإذا استخدم البطل هذه الأداة السحرية في اللحظة المناسبة جنب نفسه المخاطر، ووصل إلى مأربه.

وقد أفاض العالم النفسي **يونج** ومن ورائه مدرستُه في تفسير رموز القصص الخرافي، الذي يتشابه كثيرا في جميع أنحاء العالم، على أساس أن هذه الرموز تكشف عن تكوين اللاشعور الجمعي الذي اهتمت هذه المدرسة بصفة خاصة بالكشف عنه، وذلك في مقابل اهتمام **فرويد** بالتحليل النفسي، واهتمام **آدلر** بعلم النفس الفردي.

وقد نظر **يونج** إلى النفس الإنسانية بوصفها وحدة متكاملة من الشعور واللاشعور. وهذا اللاشعور لا يحتوي على صنوف

من الكبت النفسي فحسب، بل إنه يحتوي على ما هو أهم من ذلك بكثير، وهو القوة الدافعة إلى تكييف الإنسان لحياته بصفة عامة. وهذه القوة الدافعة هي التي تثير القدرة على التخيل، وهي التي تنظمها على نحو ما يظهر في أشكال التعبير الشعبي والأدبي بصفة عامة.

فاللاشعور عند **يونج** يتكون من عنصرين: عنصر فردي وعنصر جمعي. أما العنصر الفردي فهو ما تحدث عنه **فرويد** واهتم به، وهو ملك للإنسان الفرد. وأما العنصر الجمعي فهو ملك للناس جميعا، لأنه يحتوي على القوى الدافعة التي تعد عنصرا قائما في تكويننا النفسي، وجزءا حيا وضروريا في حصيلتنا النفسية، وهي ما اصطلح **يونج** على تسميتها بالأنماط الأصلية Archetypes وعندما تتحرك تلك الدوافع أو الأنماط الأصلية بداخلنا يكون لتأثيرها سلوك ذو طابع سحري وروحي. فكم منا يتملكه شعور مخيف إزاء القوى المُهَدِدَة التي ترقد مكبلة بداخلنا، ولا ينطق في هذه الحالة سوى بكلمة السحر التي تخلصه منها؟ إن كلمة السحر في هذه الحالة ليست سوى تعبير عن الدور الفعال للنمط الأصلي الذي يتحرك بداخلنا. ويعد النمط الأصلي أحد أقطاب لا شعورنا، أما القطب الآخر فهو القطب السلبي، وهو ما يمكن أن نسميه بالغرائز التي تبدو أنها متعارضة مع القطب الإيجابي، إلا أنها مرتبطة بنظام معين، ذلك أن القوى الخلاقة في الإنسان إنما تنجم عن هذا التعارض البالغ بين القوى الإيجابي والقوى السلبية(٢٢).

وعلى ذلك يمكننا أن نلخص فكرة **يونج** في الأنماط الأصلية في أنها الطبيعة الصافية غير الفاسدة في الإنسان. ولا يجوز لنا أن نخلط، كما يقول، بين الأنماط الأصلية والتصورات والخيالات النابعة عنها، ذلك أن الأنماط الأصلية ليست سوى دوافع، وهذه الدوافع تتحرك في نشاط داخل الإنسان، وتدفعه إلى تحقيق الشيء الكامل وإلى الشعور بالانسجام التام مع الوجود كله.، وينتج عن هذا التحرك أنماط من السلوك، كأن ينطق الإنسان بكلمات أو يقوم بأفعال لا يدرك مغزاها، وقد ويستدعى هذا التحرك أشكالا من الخيالات تظهر في الأحلام أو في التعبير الأدبي أو في حالة الأمراض النفسية.

ولا يهمنا بطبيعة الحال في هذا المجال أن نفسر كل صور القصص الشعبي بناء على نظرية **يونج**، ولكن يهمنا أن نشير إلى ما يخص موضوعنا، وهو ظهور شخصية الرجل العجوز أو المرأة العجوز كثيرا في الأدب الشعبي.

وقد سبق أن أشرنا إلى أن الرجل العجوز المجهول كثيرا ما يظهر في غير توقع لبطل الحكاية الخرافية، وذلك عندما يتأزم موقف البطل في رحلته المجهولة، فيشفق عليه ويمنحه النصيحة ويقدم له الأداة السحرية. وشبيه بهذا حكاية تحكي.

أن طفلا عهد إليه أن يرعى بقرة، ولكن البقرة ولت منه هاربة. وظل الطفل يبحث عنها وهو خائف من العقاب الذي سيوقع عليه، ولكن دون جدوى. فلما تعب من البحث نام في ظل شجرة، واستيقظ فجأة وهو يحس بأن سائلا كطعم اللبن يتسرب إلى فمه.

فلما فتح عينيه أبصر رجلا عجوزا يصب اللبن في فمه. فسعد به الطفل وتوسل إليه أن يزيده من جرعات اللبن، ولكن الرجل العجوز قال له: كفاك اليوم يا بني هذا المقدار، لقد كنت على وشك الموت حينما قابلتك. ثم طلب من الصبي أن يحكي له قصته. فحكى له الصبي قصته مع البقرة الضالة، وكيف أنه يخشى العقاب، عندئذ قال له الرجل العجوز: إنك يا بني لن تستطيع أن ترجع إلى الوراء بعد اليوم، ولا مفر لك من التقدم حيث الجبل الشاهق الذي يقع شرقا، ثم منحه العجوز النصيحة والتميمة لكي يكونا عونا له في رحلته التي سيخوضها وحيدا.

فالطفل هنا، وهو خيال نجم عن قوة الأنماط الأصلية، يرمز إلى الشيء الذي يولد ثم ينمو ويترعرع. ومن ثم فقد تحتم على الطفل ألا يعود إلى الوراء، بل يتحرك إلى أمام حيث الجبل الشاهق الذي يشبه ما تصبو إليه نفسه رفعة. وحيث أن الطفل لم يستطع أن يحقق لنفسه – لأسباب داخلية وخارجية – المعرفة اللازمة التي يحتاج إليها، فإن هذا الاحتياج النفسي يتجسد في شكل رجل عجوز حكيم يقدم له الغذاء الضروري، كما يقدم له الوسائل السحرية التي تعينه على تحقيق هدفه.

وهكذا نرى كيف أن شخصية الرجل العجوز التي استقرت في نفوس الناس بوصفها تجسيدا للخبرة والحكمة والطيبة، أصبحت في القصص الشعبي إنعكاسا للتأثير الإيجابي للقوى الداخلية التي تدفع الإنسان إلى تحقيق الشيء الكبير. وحيث أن الإنسان في مراحل حياته يجتاز العقبة تلو العقبة. كما لو كان ذلك يتم بطريقة

سحرية، حتى يصل إلى الشخصية المتكاملة، فكذلك يصل البطل في القصص الخرافي إلى ما تصبو إليه نفسه عن طريق الأداة السحرية، فكأن نوعا من السحر قد أوصله حقا إلى مأربه.

وفي مقابل شخصية الرجل العجوز الحكيم الذي كثيرا ما نصادفها في القصص الشعبي، نجد شخصية المرأة العجوز، ولكن إذا كان الرجل العجوز قد أصبح رمزا للحكمة واتساع الخبرة، ومن ثم فهو يظهر للبطل عندما يحتاج نفسيا إلى قوة البصيرة التي تهديه سواء الطريق، فإن المرأة العجوز على العكس، هي رمز للخداع والمكر. وقد تصل إلى قمة الشر لتصبح أمنا الغولة. وكلنا يذكر أن زوجه الأب أو الحماة في القصص الشعبي، إذا أرادت بابنة زوجها أو زوجة ابنها شرا، استعانت بعجوز شمطاء لكي تدبر لها مكيدة ضد البنت الطيبة البريئة. وهناك حكاية مصرية تحت عنوان "كيد النساء يغلب كيد إبليس" تصور هذه النظرة الشائعة إلى المرأة العجوز. فقد تراهن أبليس مع امرأة عجوز على أن يترك لها البلد إن هي استطاعت أن تقوم بعمل لا يقدر هو على فعله.

فذهبت العجوز إلى حانوت رجل يبيع القماش وأخذت تبكي لصاحبه وتتوسل إليه أن يمنحها قطعة من القماش، لأن أبنها يعشق امرأة، وألزمها أن تشتري له قطعة من القماش يهديها لعشيقته، وهي فقيرة لا تقدر على شرائها. فأشفق عليها صاحب الحانوت وقدم إليها قطعة من القماش. فشكرته المرأة ورحلت بقطعة القماش إلى بيت صاحب الحانوت، وعندما اقتربت من

البيت، أبصرت الزوجة تطل من الشباك، فاصطنعت أنها قد تعثرت ووقعت ولم تستطع القيام لعجزها وضعفها. فلما رأتها الزوجة على هذا النحو. خفت إليها وأعانتها على القيام وأدخلتها بيتها وطلبت منها أن تستريح. حيث تركتها لكي تصنع لها قدحا من الشاي. في أثناء ذلك أخفت المرأة العجوز قطعة القماش تحت وسادة الأريكة التي اعتاد الزوج أن يستريح عليها بعد تناول الغداء. ثم شربت بعد ذلك الشاي وشكرت للزوجة فضلها وعطفها ورحلت. فلما رجع الزوج إلى بيته، تناول الغداء وذهب ليستريح كالعادة على الأريكة. وبينما كان يقلب الوسادة، وقعت يده على قطعة القماش التي كان قد أهداها للمرأة العجوز ليقدمها إنها إلى عشيقته. ولم يساوره شك في تلك اللحظة في أن زوجته هي بعينها عشيقة هذا الابن، ومن ثم فقد اتهمها بالخيانة، وسرحها إلى بيت أبيها. ولما تأكدت العجوز أن خدعتها قد تمت بنجاح، رحلت إلى إبليس لتحكي له في زهو عن فعلتها التي يعجز هو عن اتمامها، ولكنه سخر منها وقال لها إنه يفعل مثل هذا الفعل مئات المرات كل يوم، وأن عليها أن تفتق ذهنها عن عمل يعجز هو حقا عن فعله. فعادت المرأة إلى حانوت الرجل واعترفت للزوج بفعلتها القبيحة، وأعلنت له براءة زوجته. فرحل الزوج على الفور إلى زوجته واعتذر لها وأعادها إليه.

ولما علم إبليس بذلك قال للعجوز: هذا حقا ما لا أقدر على فعله، ثم ترك لها البلد.

فإذا ظهرت في القصص الشعبي شخصية أمنا الغولة بشعرها المنفوش، وأسنانها البارزة، وملامحها الهرمة الكريهة، فإنها تكون مساوية تماما لسائر الشخوص الشريرة التي تظهر لبطل الحكاية الخرافية مثل المارد والتنين، وتكون مهمتها عندئذ اختطاف البطل والحيلولة بينه وبين العودة إلى بيته. فإذا لم يتمكن البطل من أن ينفلت من قبضتها، التهمته. وليست هذه الصورة، وفقا لـ **يونج** كذلك، سوى تجسيد للقوى المعوقة داخل الإنسان، وهي تلك القوى التي صدر له الأمر أن تفزعه حتى لا يقدم عليه ويحقق تقدما ما في حياته. فإذا لم يكن الإنسان واعيا بتلك المعوقات، ابتلعته اللاشعور، تماما كما تبتلع أمانا الغولة البطل.

وقد نتسأل بعد ذلك: لماذا خص الأدب الشعبي المرأة العجوز بتلك الصورة الكريهة، في حين جعل الرجل العجوز تجسيداً للحكمة وطيبة القلب. قد يرجع هذا إلى ما عرف عن النساء العجائز من ممارستهن السحر، والسحر الأسود بصفة خاصة. (انظر فصل ساحرة عين دور في كتاب الفولكلور في العهد القديم – الجزء الثاني – الترجمة) وربما يرجع هذا إلى ما عرف عن النساء من أن لهن باع طويل في الحيل والمكر، وربما يرجع كذلك إلى ما ترسب في نفوس البشرية من تأثير الأم، وهو ما اصطلح على تسميته بتأثير النمط النموذجي للأم. فالأم هي مصدر الخصب، وهي التي تمد الأبناء بالطعام والدفء، وقد يكون تأثيرها إيجابيا إلى أبعد من ذلك عندما تتيح للأبناء فرصة الإنطلاق مع ارتباطهم بجذورهم، وهي في هذه الحالة تعينهم على الوصول إلى الحكمة والإبداع. وقد يكون تأثيرها عكس ذلك تماما

عندما تكون عائقا نفسيا عن الإنطلاق الروحي، ونمو الشخصية وتكاملها. وهذا السلوك الأخير للأم هو ما جسدته الأساطير في الآلهة حارسة العالم السفلي، وفي الساحرة اليونانية كيرك، كما جسدته الحكايات الخرافية في صورة أمنا الغولة.

وعندما أصبح الإنسان الشعبي أكثر واقعية في عصرنا الحاضر، لم يعد يتطلب من بطل الحكاية أن يخوض مغامرة مجهولة من أجل الوصول إلى الأميرة المسحورة فيخلصها من قبضة المارد، أو من أجل الوصول إلى التفاحة السحرية التي تتدلى من فرع شجرة تنمو في غابات مظلمة بعيدة لا يمكن أن يصل إليها الإنسان العادي. كما أنه لم يعد يفترض أن البطل لا يمكنه الوصول إلى غرضه، وإن خاض في سبيل ذلك الأهوال، إلا عن طريق الأداة السحرية التي يستخدمها في الوقت المناسب، بل أصبح يتطلب من البطل أن يعبر عن مشكلاته الواقعية التي يعاني منها، سواء كانت تلك المشكلات تنتمي إلى عالمه المرئي، أو إلى عالمه غير المرئي. وطبيعي أن الإنسان الشعبي يدرك تماما عجزه عن حل هذه المشكلات، لأنها مشكلات نجمت إما عن عيب في بناء مجتمعه مثل مشكلة الظلم ومشكلة الفوارق الاجتماعية، أو أنها نجمت عن إرادة القوى الغيبية، وهي إرادة ليس للإنسان أن يتدخل فيها. ومع ذلك، فإن الإنسان الشعبي، إذ يعبر عن هذه المشكلات الواقعية التي أصبح يحسها ويعاني منها كل المعاناة، لا يكتفي بتصويرها في قصصه، بل إنه يجتهد في تفسيرها أو إيجاد حل لها. ومن ثم فقد خلق في قصصه الذي يحكيه اليوم، شخصية تشبه إلى حد كبير شخصية الرجل الكهل الحكيم التي تظهر في القصص

الخرافي، وإن اختلفت عنها تماما في وظيفتها. ذلك أن هذه الشخصية لم تعد تمنح البطل الأداة السحرية، بل أصبحت تمنحه الحكمة وتبصره بواقع الأمور التي يعجز عن إدراك كُنْهِهَا.

فقد كان هناك ملك له إبنة واحدة يحبها ويعزها، وذات يوم استدعى المنجمين لكي يقرأوا له طالع ابنته ويخبروه بأي رجل سوف تتزوج، فلما نظر المنجمون في حساباتهم الفلكية، سكتوا واطرقوا رؤوسهم. فأدرك الملك أن في الأمر شيئا، فصرخ في وجوههم ليخبروه بما رأوا. فقالوا له إن طالع إبنته يخبر بأنها لن تتزوج إلا من عبده مرجان. وعلى الرغم من أن الملك كان يحب هذا العبد، فإن أول خاطر خطر له في تلك اللحظة هو أن يتخلص منه، ومن ثم فقد كلفه بحمل رسالة إلى ملك الشمس وأن يأتيه بردها. ولم يكن ملك الشمس هذا في الحقيقة سوى شخصية وهمية، وقد وصف له الطريق المؤدى له وكان طريقا محفوفا بالمخاطر. ولهذا فلم يساور الملك شك في أن العبد مرجان سيهلك في هذا الطريق. وحمل العبد مرجان الرسالة وسار في طريقه ممتطيا صهوة جواده. وفي منتصف الطريق برز له شيخ عجوز جالسا في الخلاء، فلما اقترب منه مرجان سأله الشيخ عن مقصده، فأخبره مرجان بأن الملك كلفه بحمل رسالة إلى ملك الشمس لكي يأتيه بردها. عند ذاك أخبره الشيخ بأنه هو بعينه ملك الشمس وطلب منه الرسالة، فلما فضها الشيخ، كتب في أسفلها عبارة "اللي في علمه يتمه"، ثم أعاد الرسالة إلى العبد الذي شكره وسار في طريقه قافلا إلى سيده الملك. فلما جن عليه الليل استراح عند جذع شجرة بعد أن ربط حصانه وراح في نوم عميق. ولكنه استيقظ

على صوت صهيل حصانه وهو يركل الأرض برجله بشدة. فلما نظر العبد مرجان إلى المكان الذي يضرب فيه الحصان برجله بشدة، أبصر فجوة بداخلها كنز. فأخذ يستخرج من الكنز حتى تجمع لديه مال وفير، وفكر إثر ذلك أنه لا داعي للعودة لسيده وأن يشرع في بناء قصر ليعيش فيه حياة رفاهية ورخاء، وابتنى العبد مرجان قصرا شامخا تحيط به البساتين وتتدفق فيه النافورات. وذات يوم كان يستحم في النافورة، فلما خرج منها ونظر إلى نفسه في المرآة، رأى أن لونه قد تحول من السواد إلى البياض فيما عدا بقعة سوداء ظلت على جبينه.

وذات يوم خرج الملك مع وزيره ليتريضا. وقادهم الطريق إلى القصر الشامخ، قصر العبد مرجان، الذي يقف في بهاء وروعة وسط الرياض والبساتين، وتعجب الملك من أن يكون في مملكته هذا القصر الرائع، ولهذا فقد طرق بابه ليتعرف على صاحب هذا القصر، ورحب بهما العبد مرجان وهو يعرفهما تماما، وبالغ في ترحيبهما، وبعد أن مكث الملك والوزير عنده أياما في حفاوة بالغة عرض عليه الملك أن يزوجه ابنته. ورحب مرجان بذلك، وما هي إلا أيام حتى كانت إبنة الملك تحمل إلى العبد مرجان في صحبة أبيها وأمها والخدم والحشم.

ومكث الجميع في ضيافة العبد مرجان طيلة شهر دون أن يتوقف الملك على حقيقة هذا الرجل الثري المضياف الذي بالغ في تقدير ابنته. وذات يوم فاجأه الملك بالسؤال عمن هو، وإلى أي أصل ينتسب. وكان رد مرجان على ذلك بأنه بعينه العبد مرجان

الذي كلفه ذات يوم بحمل رسالة إلى ملك الشمس، كما أخبره بأنه مازال يحتفظ بالرسالة التي تتضمن رد ملك الشمس عليها. فلما فض الملك الرسالة وجد مكتوبا في أسفلها تلك العبارة: "اللي في علمه يتمه".

فشخصية الرجل العجوز المجهول في هذه الحكاية، لم تظهر فيها إلا لكي تبصر الملك الذي يعد رمزا للسلطة والتسلط الدنيويين، بحقيقة ميتافيزيقية ليس من شأن الإنسان أن يخوض فيها، بل له أن يصارعها، وهي أن هناك أمورا مقدرة للإنسان لا يمكنه أن يتجنبها مهما كانت سطوته وقوته البشرية. ونلاحظ أن الرجل العجوز في هذا المثال لم يمنح البطل الأداة السحرية لكي يحارب بها التنين والمارد وينتصر عليهما، بل منحه الحكمة التي أصبح يحتاج إليها الإنسان المعاصر لكي تعينه على مشقات الحياة.

وإذا كان القصاص الشعبي قد عبر في هذه الحكاية عن مشكلة غيبية تشغل الإنسان، فهو لم يعبر عنها بقصد تشكيك سامعيه فيها، بل إنه يسعى على العكس من ذلك إلى بث الطمأنينة في نفسه من حيث أنه لا ينبغي عليه أن يفكر في أمور المستقبل التي تتصف بالقدرة والرحمة في الوقت نفسه. ذلك أن إبنة الملك لم يقدر لها أن تتزوج بالعبد إلا بعد أن تغيرت صورته كلية، حتى لون جلده.

فإذا تناول القصاص الشعبي مشكلة اجتماعية تحير أبناء الشعب، فإنه يستعين كذلك بشخصية الرجل العجوز الحكيم لعله يجيب عن تساؤلاته المحيرة.

وإذا كان الشيوخ يمتلكون الحكمة والعلم إلى هذا الحد، فإن أصحاب السلطة يخشون نقدهم الذي يمكن أن يهيج الرأي العام ضدهم. ولهذا فقد أصدر ملك من الملوك مرسوما يقضي بأن يقتل كل شاب أباه الكهل حتى تخلو له البلاد من هؤلاء الحكماء الذي ينتقدون سلوكه على الدوام. وأذعن كل شاب لأمر الملك فقتل أباه فيما عدا شابا واحدا أبي أن يفعل هذا مع أبيه، واكتفى بتخبئته في البيت. ولما أطمأن الملك إلى أن شيوخ بلدته قد قتلوا عن آخرهم، كان كل يوم يجمع شباب البلد عند الجبل ويرهقهم بشق الأرض الصلبة دون أن يهدف من وراء ذلك تمهيدا للزرع.

وذات يوم سأل الأب الشيخ الذي ظل على قيد الحياة، سأل ابنه عما يفعله مع سائر الشباب، فأجابه الابن بأن الملك يجمعهم كل يوم عند جبل ويطلب منهم أن يشقوا الأرض الصخرية دون أن يدركوا هدفا لهذا العمل المضني. فلما سمع الأب ذلك قال لإبنه: إذا جاءك الملك ليمر عليكم فاصطنع أنك ترفع يدك إلى أعلى فمك وأنك تضع شيئا فيه، فإذا سألك عما تفعل، قل له، إن ما نزرعه نأكله. فلما فعل الابن ذلك وسمع الملك منه تلك العبارة الحكيمة، قال له على الفور: أن هذا القول ليس قولك، بل هو قول رجل شيخ، إذهب واحضر أباك الذي لم تنفذ فيه أمري. فذهب الإبن وأحضر أباه الذي مثل أمام الملك. فسأله الملك: أين كنت وقت أن أصدرت المرسوم؟ فرد الأب قائلا لقد كنت مسافرا وشغلت عن عودتي بأمر عسير، فلما عدت كان المرسوم قد نفذ وانتهى الأمر. فسأله الملك مرة أخرى: وما هو الأمر العسير الذي أخر عودتك؟

فأجاب الرجل: لقد كنت يا جلالة الملك أحضر حفل زواج إبنة البومة من الغراب. وقد دب الخلاف بين الطرفين في اللحظة الأخيرة. وكان يحتم علينا، نحن المدعويين، أن نفض النزاع. ذلك أن البومة اشترطت أن يكون مهر ابنتها خمسين بلدا خرابا. وقد أقنعت الغراب بقبول ذلك، فقبل وانتهى الأمر. عند ذلك قال له الملك: وهل من المعقول أيها الرجل المغفل أن هناك خمسين بلداً خرابا على وجه الأرض؟ فرد عليه الرجل الشيخ قائلا: نعم يا جلالة الملك، إن كل بلد يحكمه رجل أحمق، فهي خراب.

وأسقط في يد الملك، واقر بخطئه وقال: حقا "اللي مالوش شيخ، شيخه الشيطان" وقد أصبح هذا القول مثلا.

والشيخ في القصص الشعبي لا ينطق بالقول الحكيم فحسب، بل هو قادر كذلك على فك الأسئلة الملغزة، وهو وحده القادر على فك رموزها.

-٧-

ومن الطبيعي أن تكون هناك بعض الأمثلة الشعبية التي تلخص فلسفة الشعب في الشيخوخة والهرم. والمثل الذي سبق أن ذكرناه وهو: "اللي ما لوش شيخ، شيخه الشيطان" يصور تقدير الناس لمسنيهم ومدى إحساسهم بقيمة وجودهم بينهم. ومن ثم فقد سمي رجال الدين بالشيوخ، بصرف النظر عن مقدار أعمارهم، لأن الشيخ مجمع للمعرفة والحكمة والقدرة على تبصير الناس بجوهر الحياة.

وكل هذا يشير إلى مدى احترام الناس لتقادم الأيام على الإنسان، وهم لذلك يحثون على احترام الصغير للكبير، لأن إضافة يوم في عمر الإنسان معناه إضافة عام في علمه وخبرته. وهم يقولون في ذلك: "أكبر منك بيوم يعرف عنك بسنة".

ومع هذا لا تخلو الأمثلة الشعبية من نظرة الشعب السلبية إلى الشيخوخة. فالشيخوخة هي نهاية المطاف في حياة الإنسان، ولن يعود الشخص بعدها شابا بحال من الأحوال. وفي ذلك يقول المثل الشعبي في صيغة سؤال استنكاري: "هو الرائب يبقى حليب"؟! فاللبن الحليب هو الأصل. وهو يتحول بعد عملية بيولوجية إلى لبن رائب. ولا سبيل إلى أن يصبح اللبن الرائب حليبا مرة أخرى. حقا أن اللبن الرائب له فوائده التي ربما فاقت فوائد اللبن الحليب، ولكن هذا لا ينفي الحقيقة وهو أن اللبن الحليب هو الأصل الطازج للبن الرائب. وربما ذكرنا هذا المثل بقول الشاعر القديم:

اترجو أن تكون وأنت شيخ
كما قد كنت أيام الشباب
لقد كذبتك نفسك ليس ثوب
دريس كالجديد من الثياب

وإذا كان الأمر كذلك، فواجب على الشيخ أن يحتفظ بوقاره بما يتلاءم مع سنه وعقله. فإذا حاول الشيخ أن يتصابى، قال فيه المثل: "الشايب لما يدلع يبقى زي الباب المخلع". أو يقول: عجوز ومتصابي! فإذا لم يكن الرجل الكبير متسما بالحكمة والعقل

اللذين يزينانه بعد بلوغه سن الشيخوخة، قال فيه المثل: "شابت لحاهم والعقل لسه ما جاهم".

* * *

هذه جولة مع الإنسان الشعبي وصراع الزمن. وقد حرصنا في الجزء الأول من البحث أن نبرز صور هذا الصراع من خلال أشكال تعبيره من ناحية، كما حاولنا أن نستخلص منها فلسفته في فكرة الزمن بوجه عام من ناحية أخرى. وصراع الإنسان مع الزمن يعني رفضه للزمن الحسي، وهذا الرفض يتمثل في أمرين: الأمر الأول، رفض التاريخ، بمعنى أنه أحداث يسلم بعضها إلى بعض بحيث لا يمكن تجنبها أو تجنب نتائجها. فالإنسان الشعبي في هذه الحالة لا ينظر إلى هذا الحدث، مهما كانت نتائجه، على أنه نهاية حتمية لا مفر له من أن يخضع لها ويستسلم في يأس، بل إن علاقته الروحية القوية بالقوى العليا سرعان ما تزيل مخاوفه، وتقوى أمله في تغير الحياة وتجددها، كما هو شأنها منذ الأزل، أما الأمر الثاني فهو رفض الاستسلام للحظة تبدو فيها الحياة، سواء كانت الحياة الطبيعية أو حياة الإنسان – أنها قد أجدبت أو فنيت. ذلك أن الجدب والفناء يأتي بعدهما الخصب والبعث لا محالة، وهذا يعني أن الخصب دائم والزمن دائم، وإن تخلل ذلك فترات من الضعف والجدب والموت المؤقت.

أما الجزء الثاني من البحث فقد انتقلت فيه من فكرة الزمن المجرد إلى فكرة الزمن المجسد في العجز والهرم والشيخوخة، كما تتمثل في القصص الشعبي والأمثال الشعبية.

وبهذا يكون الإنسان الشعبي قد عبر عن فكرة صراعه مع الزمن في تحد يتسم بالشمولية والتنوع والتفاؤل الذي يَجبُّ التشاؤم. وربما كان أروع من هذا كله أنه لم يتقوقع داخل ذاته ليعبر عن مأساته، بل عبر عن نفسه بوصفها نفسا تخفق بين أنفاس الكون النابضة، وبوصفها إيقاعا من إيقاع الحياة الذي يتردد صداه في جميع الأجواء، في الفضاء وفي الأنهار وفي الجبال وفي البحار، ومع حفيف الأشجار، وأنغام الطيور، وربما مع الأصوات الهامسة الصادرة من العالم غير المرئي.

ولعلنا رأينا من خلال تقديم تلك النماذج الأدبية المتنوعة التي تتراوح بين قديم وحديث، إلى أي حد وقع الفكر الشعبي أسير مفهومات محددة للزمان والمكان، وإلى أي حد استطاع أن يربط المكان بالمفهوم الزمني الذي يتأمله؛ فعندما تتشكل المفاهيم الزمنية حول زمن الخلود. على سبيل المثال، يترك لعنانه المجال لاقتحام العوالم المحرمة عليه أن يصل إليها وأن يبصرها على نحو ما يرى عالمه الواقعي. ومن هنا ينفتح النص على عوالم لاحدود لتخيلها وتخيل الشخوص التي تسكنها أو تقف حارسة عليها. وربما كان عالم جلجامش الذي اخترقه وأصر على أن تتم المواجهة بينه وبين آلهته، خير مثال على مقدرة الخيال الإنساني في تصوير العوالم المحيطة به، المرئي منها والخفي وفقاً للعلاقة التي استقر عليها فكره بينه وبين الكون المتحكم في مصيره.

أما عندما يصطدم الإنسان بالعالم المعلوم المحدود المقدر له أن يعيشه إلى أن تنتهي الحياة، فإنه عندئذ ينحصر فكره

وشعوره في المكان الممثل لنهاية الحياة، وهو القبر، الذي يصبح موضوع إبداعه في فن "العديد". ولا مجال في هذا الفن لأن ينطلق الإنسان بخياله الجامح لتصور تلك المفارقة بين المحدود واللا محدود، والإنسان والإلهي، كما يفعل في تصويره للعالم الإلهي، بل تنحصر في الفرق بين الحياة والموت، بين الحياة الرحبة التي يشع فيها الضوء والنضرة والعطر والحياة الضيقة التي يختنق منها الإنسان لخلوها من الهواء والضوء وكل مظاهر الحياة.

تقول العدودة على سبيل المثال، على لسان طفل توفي ويوشك أن يوضع في قبره:

ولا تنزلوني القبر أبو تعلب
كله ضلام ولا فيه عيال تلعب

ويعد فن العديد من الفنون التي تستقل المرأة به وتبدع إذ أنها تجد فيه المجال الذي تودع فيه أحزانها الدفينة.

ويظل بعد ذلك العالم الأرض الذي يعيش فيه الإنسان حياته الدنيا في وحدة واحدة مع غيره، يظل هو المكان المعلوم له والمقدر له أن يعيش فيه بين عالمين مجهولين، عالم السماء وعالم ما بعد الحياة.

إنه العالم الذي أستقطب كل أنشطته وطموحاته ومثله، عالم شاء أن يصنع له نظامه الذي يجمع الناس جميعاً في وحدة

واحدة حسية ومعنوية. ولهذا فقد كان حريصاً على أن يصوره من خلال الجمع بين المحسوس والروحي، والمرئي وفوق المرئي.

وربما قدمنا النماذج الوافرة من الإبداع الشعبي الأدبي في هذا الكتاب، ما يؤكد لنا أن الإنسان الشعبي في تعبيره المتواصل من القديم إلى الحديث، يحن دائماً إلى أن تتأسس علاقاته بالكون الذي يعيش فيه ويراه منحة من الخالق، على نحو صادق وواضح ومبين.

وقد حرص على توصيل أفكاره في صيغ جمالية طريفة ومسايرة لاستيعاب حياة الجماعة من ناحية، ومثيرة للفكر الفلسفي والمعاني العميقة لدى الباحثين من ناحية أخرى. وفي هذا تتمثل قدرتها على أن تصل شفاها وتدوينا من جيل لآخر ومن مستوى فكري إلى مستوى فكري آخر، وهي في كل تلك الحالات تثير المتعة الجمالية وتثير التأمل.

الهوامش

١- سوف نلتزم بهذا الاصطلاح الذي نعني به بشيء من التجاوز كلا من الإنسان البدائي والإنسان الشعبي الذي يعيش مرتبطا بالعادات والمعتقدات والتقاليد الجمعية المتوارثة.

2- Jessie L. Weston: From Ritual to Romance. P. 47 (New York 1957).

3- Op. Cit. p. 39-40.

4- Mirca Eliade: Cosmos and History, P. 57, 58 (New York, 1959).

5- From Ritual to Romance: p 58.

6- Frazer: The Golden Bough, Vol. V. pp. 17 etseq.

٧- الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن: جـ ١٥ ص٢٧٩، ٢٨٠.

٨- نفسه ص ٢٨١.

٩- نفسه ص ٢٨٢.

١٠- أنظر كتاب "التيجان في ملوك حمير" عن وهب بن منبه رواية أبي محمد عبد الملك. ط. حيدر آباد. من ص ٨٢ إلى ٨٤.

١١- أنظر نفسه من ص٨٦ إلى ٩١.

١٢- المرجع السابق ص ١٠٢.

١٣- نفسه ص ١٠٩.

١٤- ومن ثم تأتي التسمية باسمي "خضر" و"خضرة" (في الريف المصري).

١٥- أخبار عبيد بن شرية الجرهمي (ط حيدر أباد) من ٣٥٦ – ٣٦٧.

١٦- قال عبيد بن شرية: "إنه كان ينظر إلى أعظمها رأسا وأجلها عظما" (نفسه ٣٥٧).

١٧- الكسائي: قصص الأنبياء – ٢٣٩.

١٨- الثعلبي: قصص الأنبياء المسمى بالعرائس: ص١٩٣.

١٩- أنظر لكاتبة البحث فصل ملحمة جلجامش من كتاب أشكال التعبير في الأدب الشعبي – الطبعة الثالثة – مكتبة نهضة مصر.

٢٠- أنظر فريزر: الفولكلور في العهد القديم – الترجمة – الجزء الأول باب سقوط آدم.

21- Malinowski (B).: Magic, Science and Religion pp. 104-110 (Bistib 1948).

22- Hano E. Giehr: Volksmarchen und Tiefen Psychologie Munchen, 1980, S. 19.